الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[١].

٢ ـ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ نائماً ذات يوم ورأسه في حجري فبكيت فقطرت دموعي على خده فانتبه رسول الله ﷺ فقال: مالك؟ قلت: ذكرت القيامة وأهوالها فهل يذكر أحدٌ أحداً يومئذٍ فقال ﷺ: «**أما في ثلاثة مواطن فلا، عند الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أن صحيفته توضع في يمينه أو شماله وعلى الصراط**»[٢].

٣ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «**أنا فاعل**» قلت: يارسول الله فأين أطلبك؟ قال: «**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطيء هذه الثلاث المواطن**»[٣].

أما نوعية الموزون يوم القيامة فهذا مما اختلف فيه أهل العلم على أقوال:

الأول: أن الذي يوزن هي الأعمال نفسها وأنها توضع في

---

(١) رواه البخاري ح٦٤٠٦ ومسلم ح٢٦٩٤.
(٢) رواه أبوداود ح٤٧٥٥ والإمام أحمد في المسند ٦/ ١١٠ والحاكم ٤/ ٥٧٨ وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين.
(٣) رواه الترمذي ح٢٥٦٣ وقال عنه الألباني في صحيح الترمذي بأنه صحيح ح١٩٨١.

الميزان حيث تأتي الأعمال الحسنة على صورة حسنة، والأعمال السيئة على صورة قبيحة، ودليل أصحاب هذا القول حديث أبي هريرة الصحيح وهو قوله ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[١] وقد وردت نصوص كثيرة تدل على أن الأعمال تأتي يوم القيامة على هيئة أشكال تحاجان عن صاحبهما فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه واقرأوا الزهراوين سورة البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان[٢] أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة**». قال معاوية ـ يعني ابن سلام[٣] ـ بلغني أن البطلة السحرة[٤].

الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه وأن العباد يوزنون يوم القيامة فيثقلون أو يخفون بقدر إيمانهم لا بضخامة أجسامهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرؤا**

---

(١) رواه البخاري ح٦٤٠٦ ومسلم ح٢٦٩٤.

(٢) قال النووي: الغمامة كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها قال العلماء المراد أن ثوابهما يأتي كغمامة/ شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٣٣٨.

(٣) معاوية ابن الإمام أبي سلام الحبشي العربي الشامي وثقه النسائي وغيره وكان من أئمة الدين وقال يحيى بن معين أعده محدث أهل الشام في زمانه وقال عنه أحمد بن حنبل ثقة مات سنة ١٧٠هـ سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩٧.

(٤) رواه مسلم ح٨٠٤.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[(١)]»[(٢)].

الثالث: أن الموزون صحائف الأعمال فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدَّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ يقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك فيقول يارب ما هذه البطاقة ما هذه السجلات فقال: فإنك لا تظلم قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء»[(٣)].

وقد رجَّح القرطبي هذا القول فقال: والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف. قال ابن عمر: توزن صحائف الأعمال وإذا ثبت هذا فالصحف أجسام فيجعل الله تعالى رجحان إحدى الكفتين على الأخرى دليلاً على كثرة أعماله[(٤)].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.
(٢) رواه البخاري ح٤٧٢٩.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٧٣ بلفظ قريب منه ورواه الترمذي ح٢٧٨٩ وابن ماجه ح٤٣٠٠ وقال عنه الألباني بأنه حديث صحيح وله سند آخر بمعناه انظر: صحيح الترمذي للألباني ٢/ ٣٣٣.
(٤) التذكرة للقرطبي ٣١٣.

كما مال إلى هذا القول السفاريني فقال: «والحق أن الموزون صحائف الأعمال وصححه ابن عبدالبر وغيرهما وذهب إليه جمهور من المفسرين»[١].

ويمكن الجمع بين ما دلت عليه النصوص التي أوردها أصحاب كل قول بالقول بأن الذي يوزن هو العامل وعمله وصحف أعماله وهو ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله. بعد أن أضاف قولاً رابعاً هو بمعنى القول الأول حيث يقول:

والذي استظهر من النصوص والله أعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينها ويدل لذلك ما رواه أحمد رحمه الله تعالى عن عبدالله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ قال: قال رسول الله ﷺ: توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيمايل به الميزان قال: فيبعث به إلى النار قال فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن عزوجل يقول: لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل الميزان[٢] فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن ولله الحمد والمنة[٣]..

---

(١) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/١٨٧.
(٢) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.
(٣) معارج القبول لحافظ الحكمي: ٢/٨٤٨.

المبحث العاشر

الجنة والنار

الجنة هي الدار التي أعدَّها الله لعباده المؤمنين الخاضعين لشريعته والمتبعين لرسله وهي دار النعيم والثواب المقيم أعدَّ الله فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(١) ومن دخلها فقد فاز الفوز العظيم وربح الربح الذي ليس بعده خسارة، يقول عزوجل: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾(٢).

والنار هي الدار التي أعدَّها الله للكافرين به المكذبين لرسله المتمردين على شريعته فهي الخزي الأكبر والخسران العظيم يقول عزوجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾(٣) أعدَّ الله فيها من العذاب والنكال ما لا تتصوره العقول يقول الله عزوجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

والإيمان بالجنة والنار من أهم قضايا الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان مما لا يتم الإيمان إلا بها.

وفيما يلي عرض لمذاهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية:

أولاً: أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن:

وهو معتقد أهل السنة والجماعة وهذه بعض أقوال أئمتهم وعلمائهم:

١ ـ قال الإمام أحمد رحمه الله: «وأن الله خلق الجنة قبل الخلق وخلق لها أهلاً ونعيمها دائم ومن زعم أنه يبيد من الجنة شيء فهو كافر وخلق النار قبل خلق الخلق وخلق لها أهلاً وعذابها دائم»[(١)].

٢ ـ عقد الآجري كتاباً مطولاً في كتابه الشريعة بعنوان: «كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان، ثم قال: اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القرآن شاهد على أن الله عزوجل خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وخلق للجنة أهلاً وللنار أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام وذاق حلاوة طعم الإيمان دل على ذلك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا، ثم أورد كثيراً من نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة يثبت بها ما ذكره»[(٢)].

---

(١) رسالة الإمام أحمد التي بعثها لمسدد بن مسرهد ذكرها أبويعلى في طبقات الحنابلة ١/ ٣٤٤.

(٢) الشريعة للآجري ٣٨٧.

٣ ـ قال ابن عبدالبر عند ذكره لحديث صلاة الكسوف: «وفي الحديث أيضاً من ذكر الجنة والنار دليل على أنهما مخلوقتان وعلى ذلك جماعة أهل العلم وأنهما لا يبيدان من بين سائر المخلوقات وأهل البدع ينكرون ذلك»(١).

وقد استدل أهل السنة والجماعة على ما ذهبوا إليه من القول بأن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن بالأدلة الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى عن الجنة: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾(٢).

٢ ـ قوله تعالى عن الجنة أيضاً: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٣).

٣ ـ قوله جل جلاله عن النار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾(٤).

ثانياً: من السنة المطهرة:

١ ـ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خسفت الشمس فقام النبي ﷺ فقرأ سورة طويلة ثم ركع فأطال ثم رفع رأسه ثم استفتح بسورة أخرى ثم ركع حتى قضاها وسجد ثم فعل ذلك في الثانية

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٣/ ٣٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤، وسورة آل عمران، الآية: ١٣١.

ثم قال: «**إنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتم ذلك فصلوا حتى يفرج عنكم لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدته حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت ورأيت فيها عمرو بن لُحَيٍّ**[(١)] **وهو الذي سيب السوائب**»[(٢)].

٢ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «**أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف فإني أراكم من أمامي ومن خلفي ثم قال: والذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً قالوا: وما رأيت يارسول الله قال: رأيت الجنة والنار**»[(٣)].

٣ ـ حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»[(٤)].

ووجه الاستدلال في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ظاهر

---

(١) عمرو بن لُحيَّ بن حارثة الأزدي أول من بدل دين إسماعيل ودعى العرب إلى عبادة الأوثان كنيته أبوثمامة كان قد تولى حجابة البيت الحرام بمكة وزار بلاد الشام فوجد أهلها يعبدون الأصنام وأعجب عمرو بتلك الأصنام فأخذ عدداً منها ونصبها بمكة ودعا الناس إلى تعظيمها والاستشفاء بها/ الأعلام للزركلي ٥/ ٨٤.

(٢) رواه البخاري ح١٢١٢ ومسلم ح٩٠١.

(٣) رواه مسلم ح٤٢٦.

(٤) رواه البخاري ٦٥٤٦ ومسلم ح٢٧٣٧.

فإن الله أخبر أنه أعد الجنة وما فيها لأهل التقوى والإيمان وأعد النار وما فيها لأهل الكفر والنفاق والإعداد فيه التصريح بثبوت الشيء وتحققه وأنه مخلوق وموجود الآن كما أن الرسول ﷺ أخبر أنه رأى الجنة والنار واطلع عليهما وعلى أهلهما ومعنى هذا أنهما مخلوقتان وموجودتان الآن وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

ثانياً: أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان أبداً:

وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة وهذه المسألة مما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة حيث يقولون بعدم فنائهما وإلى أنهما باقيتان أبد الآبدين وهذه بعض أقوالهم:

١ - قال الإمام أحمد رحمه الله وقد خلقت النار وما فيها وخلقت الجنة وما فيها خلقهما الله عزوجل ثم خلق الخلق لهما لا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عزوجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1] وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عزوجل عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقهما الله للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا[2].

٢ - قال ابن عبدالبر رحمه الله: قال أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا تبيدان لأنهما إذا كانتا لا تبيدان حتى تبيد الدنيا ومعلوم أن الدنيا إذا انقرضت بقيام الساعة جاءت الاخرة

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) طبقات الحنابلة ١/٢٨.

والآخرة غير خالية من جهنم كما أنها غير خالية من الجنة لأن الجنة رحمة الله تعالى والنار عذابه يصيب بها من يشاء من عباده[(١)].

٣ ـ قال ابن تيمية رحمه الله: وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك»[(٢)].

وقد استدل عامة أهل السنة على ما ذهبوا إليه من القول بخلود الدارين ـ أعني الجنة والنار وعدم فنائهما ـ بأدلة الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة:

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى في الجنة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾[(٣)].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[(٤)].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٥/١٠.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨/٣٠٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٧

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٠ ـ ٢٢.

مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[١].

٤ ـ وقال تعالى في النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾[٢].

٥ ـ ويقول سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[٣].

٦ ـ ويقول جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾[٤].

ووجه الاستدلال في تلك الآيات أن الله ذكر أن أهل النعيم يتنعمون في الجنة بصفة أبدية دائمة وأنهم لن يخرجوا منها كما أخبر عن أهل النار أنهم أيضاً يعذبون فيها بشكل دائم وبصورة متواصلة وأنهم لن يخرجوا منها.

ثانياً: من السنة المطهرة:

١ ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم ياأهل النار لا موت ياأهل الجنة لا موت. خلود»[٥].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

(٥) رواه البخاري ٦٥٤٤ ومسلم ح٢٨٥٠.

٢ ـ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال ياأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون**[١] **وينظرون ويقولون نعم: هذا الموت. ويقال ياأهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح ثم يقال: ياأهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النار خلود فلا موت**». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾[٢]»[٣].

٣ ـ حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبداً فذلك قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾[٤][٥].

ودلالة هذه الأحاديث على بقاء الجنة والنار وبقاء أهلها بها للنعيم أو للعذاب ظاهرة ولله الحمد والمنة. هذا بالنسبة للجنة بالذات، أما بالنسبة للنار فقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في أبدية النار قولان معروفان عن السلف

---

(١) يشرئبون: أي يرفعون رؤوسهم لينظروا/ النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٥٥.
(٢) سورة مريم، الآية: ٣٩.
(٣) رواه البخاري ح٤٧٣٠ ومسلم ح٢٨٤٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٥) رواه مسلم ح٢٨٣٧.

والخلف وأن النزاع في ذلك معروف عن التابعين ثم ساق طرق الذين قطعوا بدوام النار وخلودها وعدم فنائها، وهي:

١ ـ اعتقاد الإجماع فكثير من الناس يعتقدون أن هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه وأن الاختلاف حادث وهو من أقوال أهل البدع.

٢ ـ أن القرآن دل على ذلك دلالة قطعية، فإنه سبحانه أخبر أنه عذاب مقيم، وأنه لا يفتر، عنهم وأنه لن يزيدهم إلا عذاباً وأنهم خالدون فيها أبداً، وما هم بخارجين من النار، وما هم منها بمخرجين، وأن الله حرم الجنة على الكافرين، وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، وأن عذابها كان غراماً أي مقيماً لازماً قالوا: وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره.

٣ ـ أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان دون الكفار وأحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين من النار وأن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

٤ ـ أن الرسول ﷺ وقفنا على ذلك وعلمناه من دينه بالضرورة من غير حاجة بنا إلى نقل معين كما علمنا من دينه دوام الجنة وعدم فنائها.

٥ ـ أن عقائد السلف وأهل السنة مصرحة بأن الجنة والنار مخلوقتان

وأنهما لا يفنيان بل هما دائمتان وإنما يذكرون فنائها عن أهل البدع.

٦ ـ أن العقل يقضي بخلود الكفار في النار لأن النفوس البشرية باقية واعتقاداتها وصفاتها لازمة لها لا تفارقها وإن ندمت عليها لما رأت العذاب فلم تندم عليها لقبحها أو كراهة ربها لها بل لو فارقها العذاب لرجعت كما كانت يقول عزوجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1] فهؤلاء قد ذاقوا العذاب وباشروه ولم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم بل خبثها وكفرها قائم بها لم يفارقها بحيث لو ردوا لعادوا كفاراً كما كانوا وهذا يدل على أن دوام تعذيبهم يقضي به العقل كما جاء به السمع[2].

ثم ذكر بعد ذلك جواب القائلين بفناء النار على هذه الأدلة بما لا إقناع فيه مع صراحة الأدلة التي تضمنها الكتاب الكريم والسنة المطهرة مما سبق إيراده ولا مجال للعقل في الخوض فيه مادام الله عزوجل ورسوله ﷺ قد أخبرا بشكل صريح وواضح إلى خلود الدارين وخلود أهلهما وعدم فنائهما.

ويلاحظ أن ابن القيم رحمه الله لم يرجح أي القولين أولى بالصواب حيث قال: فهذه نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) حادي الأرواح لابن القيم ٢٥٤ بتصرف يسير وشفاء العليل ٥١٨ بأسلوب قريب منه.

ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب فإن قيل فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة قيل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾(١) وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء وقال ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء(٢).

ورغم أن كلامه في كتابه شفاء العليل يوحي بميله إلى رأي

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٧.

(٢) حادي الأرواح ٢٧٤.

وفي شفاء العليل إضافة إلى ذلك قوله رحمه الله: وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ووصف ذلك أحسن صفة ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك في خلقه ما يشاء. وعلى مذهب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حيث يقول: (لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً) وذكر ذلك في تفسير قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأنعام: ١٢٨. وعلى مذهب أبي سعيد الخدري حيث يقول: (انتهى القرآن كله إلى هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ هود: ١٠٧. وعلى مذهب قتادة حيث يقول في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ الله أعلم بتبيينه على ما وقعت.

وعلى مذهب ابن زيد حيث يقول (أخبرنا الله الذي يشاء لأهل الجنة فقال ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ هود ١٠٨ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار).

والقول بأن النار وعذابها دائم بدوام الله خبر عن الله بما يفعله فإن لم يكن مطابقاً لخبره عن نفسه بذلك وإلا كان قولاً عليه بغير علم والنصوص لا تفهم ذلك والله أعلم). شفاء العليل لابن القيم ٥٢٢.

القائلين بفناء النار وعدم أبديتها[١] فإنه قد صرح بأن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع حيث يقول: «والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة السلف والذين قالوه إنما تلقوه من قياس فاسد كما اشتبه أصله على كثير من الناس فاعتقدوه حقًا»[٢].

ويقول في الوابل الصيب: «ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب يشينه خبث وخبث لا طيب فيه وآخرون فيهم خبث وطيب كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض»[٣].

ومثل ذلك موجود في كثير من مؤلفاته[٤] وهو ما يتفق مع منهجه في الاستدلال باعتباره من أئمة أهل السنة والجماعة ومن أكابر الدعاة إليها رحمه الله رحمة واسعة.

وقد حاول بعض الباحثين المعاصرين تبرئة الشيخين أعني ابن

---

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم ٥٠٦ ـ ٥١٨.

(٢) حادي الأرواح ٢٤٧.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ٣٣.

(٤) انظر: زاد المعاد ١/٦٦، واجتماع الجيوش الإسلامية، ٩١ وطريق الهجرتين ٢٥٤.

تيمية وابن القيم مما نسب إليهما أو فُهِمَ من كلامهما ومنهم... الدكتور بكر أبوزيد في كتابه «ابن القيم حياته وآثاره» ص١٤٨ والدكتور عبدالله محمد جار النبي في كتابه «ابن القيم وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف» ص٥٦٧ والله أعلم.

ثالثا: أن الجنة الموعودة هي الجنة التي كان فيها آدم وحواء:

وهذه المسألة محل نزاع بين أهل السنة والجماعة رحمهم الله وقد ذكر ابن القيم أن للعلماء فيها قولين مشهورين:

الأول: أن الجنة التي أسكنها آدم وحواء ثم إهبطا منها هي جنة الخلد.

الثاني: أنها جنة أخرى غيرها في موضع عالٍ من الأرض ثم ساق حجج الفريقين فقال:

«حجج من اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس يوم القيامة.

١ ـ قالوا: قولنا هذا هو الذي فطر الله عليه الناس صغيرهم وكبيرهم لم يخطر بقلوبهم سواه وأكثرهم لا يعلم في ذلك نزاعاً.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[1] فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥، ٣٦.

أ ـ من لفظه اهبطوا فإنه نزول من علو إلى سفل.

ب ـ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقب قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ قد دلَّ على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض.

٣ ـ لو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾[1] فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى.

٤ ـ أن الجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2] ونظائره ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الإسم علماً عليها بالكلية كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها فحيث ورد لفظها معرفاً انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين.

ثم ساق حجج القائلين بأنها ليست جنة الخلد وإنما هي جنة في الأرض فقال:

١ ـ قد أخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله أن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعد. وأنها دار المقامة وأن من دخلها أقام بها وأن لها صفات ليست في الجنة التي دخلها آدم من كونها دار خلد ودار ثواب لا دار تكليف ودار سلامة لا دار ابتلاء ودار لا يعصى الله بها. وأنها

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة البقرة: الآية٣٥.

دار قرار ولم يستقر بها الأبوان وليست دار خوف ولا حزن، وقد حصل للأبوين فيها من الحزن والخوف ما حصل ودار سلام ولم يسلم فيها الأبوان من الفتنة وأنه لا لغو فيها ولا تأثيم ولا كذب وقد سمع فيها آدم من إبليس اللغو والإثم والكذب.

٢ ـ أن الله خلق آدم في الأرض ولم يذكر في موضع واحد أصلاً أنه نقله إلى السماء بعد ذلك ولو كان قد نقله بعد ذلك إلى السماء لكان هذا أولى بالذكر. لأنه من أعظم الآيات ومن أعظم النعم عليه.

٣ ـ أن الله أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة أي آدم فكيف يسكنه دار الخلد التي من دخلها خلد فيها ولا يخرج منها.

٤ ـ من المعلوم الذي لا ينازع فيه مسلم أن الله سبحانه خلق آدم عليه السلام من تربة هذه الأرض وأن ما فوق السموات ليس بمكان للطين الأرضي.

بعد ذلك أورد جواب أرباب القول الثاني على حجج أصحاب القول الأول. فقال:

١ ـ أما قولكم أن قولنا هو الذي فطر الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه فالمسألة سمعية لا تعرف إلا بإخبار الرسل ونحن وأنتم إنما تلقينا هذا من القرآن لا من المعقول ولا من الفطرة. فالمتبع فيه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ونحن نطالبكم بصاحب واحد أو تابع أو أثر صحيح أو حسن بأنها جنة الخلد.

٢ ـ أما استدلالكم بقوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا﴾ عقيب إخراجهم من الجنة فلفظ الهبوط لا يستلزم النزول من السماء إلى الأرض

وغايته أن يدل على النزول من مكان عال إلى أسفل منه وهذا غير منكر فإن كانت جنة في أعلى الأرض فاهبطوا منها إلى الأرض وأما قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ فهذا لا يدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض فإن الأرض اسم جنس وكانوا في أعلاها وأطيبها وأفضلها لا يدركهم فيه جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى فاهبطوا إلى أرض يعرض فيها ذلك كله.

٣ ـ أما قولكم أن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية فلو كانت الجنة فيها لعلم كذب إبليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد فجوابه من وجهين:

أ ـ أن اللفظ إنما يدل على الخلد وهو أعم من الدوام وهو في اللغة المكث الطويل.

ب ـ أن العلم بانقطاع الدنيا ومجيء الآخرة إنما يعلم بالوحي ولم يتقدم لآدم عليه السلام نبوة يعلم بها ذلك.

٤ ـ وأما قولكم أن الجنة وردت معرفة باللام التي للعهد فقد وردت معرفة باللام غير مراد بها جنة الخلد قطعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

وفي نهاية المحاكمة ساق ردود أصحاب القول الأول على استدلالات أصحاب القول الثاني القائلين بأنها ليست جنة الخلد فقال:

١ ـ أما قولكم أن الله سبحانه أخبر أن جنة الخلد إنما يقع الدخول

(١) سورة القلم، الآية: ١٧.

إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعد. فهذا حق في الدخول المطلق الذي هو دخول استقرار أما الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة فقد دخل النبي ﷺ الجنة ليلة الإسراء وأخبر أن أرواح المؤمنين والشهداء في البرزخ في الجنة وهذا غير الدخول الذي أخبر الله به يوم القيامة وما ذكرتموه من الصفات التي توجد في الجنة وأنها لا توجد في جنة آدم من العري والنصب والحزن والكذب فهذا حق ولكن هذا إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة.

٢ ـ وأما استدلالكم بكون آدم خلق من الأرض فمن أيد لكم أنه كمَّل خلقه فيها مع أن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1] دليل على أنه كان معهم في السماء حيث أنبأهم بتلك الأسماء وإلا فهم لم ينزلوا كلهم إلى الأرض حتى سمعوا منه ذلك ولو كان خلقه قد كمل في الأرض لم يمتنع أن يصعده سبحانه على السماء لأمر دبَّره وقدَّره فقد أصعد المسيح عليه السلام إلى السماء وقد أسري ببدن رسول الله ﷺ وروحه إلى السماء[2].

هذا ملخص حجج الفريقين وكم كنا نود أن ابن القيم رحمه الله بعد ذلك رجَّح أي القولين أقرب إلى الصواب ولكنه توقف في ذلك لقوة أدلة كل فريق ونحن نتوقف في ذلك كما توقف ونكل علم ذلك إلى علام الغيوب ونستغفر الله من كل ذنب ونتوب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) حادي الأرواح لابن القيم ص(١٩).

الباب الحادي عشر
الصوفية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: **تعريف التصوف**

المبحث الثاني: **نشأة التصوف.**

المبحث الثالث: **مراحل التصوف**

المبحث الرابع: **الآداب عند الصوفية**

المبحث الخامس: **السماع عند الصوفية**

المبحث السادس: **الولاية والكرامة عند أهل السنة والصوفية والمتكلمين**

المبحث الأول
تعريف التصوف

التصوّف لغة: تباينت أقوال العلماء في الاشتقاق اللغوي لكلمة التصوف وهل هي مأخوذة من الصفاء أو الصوف أو من الصُفَّة أو الصفِّ أو غير ذلك.

فالذين قالوا إنها مشتقة من الصفاء الروحي والشفافية النفسية يعللون هذا القول بأن الصوفية تعني تلك المعاني السامية والمبادىء الرفيعة

إلاَّ أن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرد هذا الاشتقاق لعدم صحته لغوياً، «إذ اشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وكان حقه أن يقال صفائية أو صفوية»[١].

ومن الصوفية من ينسبها إلى الصفَّة وهي المكان الذي كان يقيم فيه بعض فقراء المهاجرين بمسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ممن لم يكن لهم أهل ولا دور ينزلون بها والذين كانوا قد فرَّغوا أنفسهم لطلب العلم والتعبد.

غير أن القشيري[٢] لا يسلِّم بصحة هذه النسبة بقوله: «فالنسبة

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٣٦٩).

(٢) عبدالكريم بن هوازن القشيري الصوفي، صاحب كتاب الرسالة، المصنف في الكلام على الصوفية وأحوالهم وأخلاقهم. ولد سنة ٣٧٥هـ، وكان عديم النظير في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، ويعتبر من شيوخ =

إلى الصفة لا تجيء على نحو صوفي»[١].

وقال بعضهم: إنها منسوبة إلى الصف الذي من معانيه الصف الأول في الصلاة، والصف المقدم بين يدي الله في عموم الطاعات والقربات.

ولكن القشيري يعترض ـ أيضاً ـ على ذلك لغوياً رغم تسليمه بصحة المعنى الدال على أنهم كأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى فيقول: «ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله قيل له كان حقه أن يقال صَفِّيَة»[٢].

ثم يرجِّح أنه لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وأنه كاللقب[٣].

إلاَّ أن شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح أن التصوّف منسوب إلى لبس الصوف فيقول:

«وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم: القُرَّاء، فيدخل فيهم العلماء والنُسَّاك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية الفقراء واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف هذا هو الصحيح.

وقد قيل أنه نسبة إلى صفوة الفقهاء.

وقيل إلى صوفة بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون

= التصوف في خراسان. مات سنة (٤٦٥هـ).
سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧).

(١) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٥٠).

(٢) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٥٠).

(٣) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٥٠).

بالنسك. وقيل إلى أهل الصفة، وقيل إلى الصفا وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى. وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل صُفِّي وصفائيٌ أو صَفَوِيٌّ أو صفِّي ولم يقل صوفي[(١)].

ومع التسليم برجحان هذه النسبة إلاَّ أن القشيري كعادته يعترض على ذلك بأن الصوفية ليسوا وحدهم الذين يلبسون الصوف بل يشاركهم غيرهم فما الداعي لتخصيص الصوفية بهذه النسبة دون غيرهم[(٢)].

وممن تصدى للرد على هذا الاعتراض ابن خلدون[(٣)] من طريقين:

الأول: أنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لا نجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على طائفة الصوفية.

الثاني: أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهداً وتورعاً عن لبس فاخر الثياب، أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذا

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١١/ ١٩٥).

(٢) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٥٠).

(٣) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة، ولد سنة ٧٣٢هـ، وكان فصيحاً جميل الصورة عاقلاً صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طموحاً للمراتب العالية، له عدة مصنفات من أشهرها العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر وهو سبعة مجلدات أولها المقدمة الذي يعتبر من أصول علم الاجتماع مات سنة (٨٠٨هـ). الأعلام للزركلي (٣/ ٣٣٠).

الغرض الذي ينشده الصوفي وحينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمراً واضحاً»[١].

التصوف اصطلاحاً:

من الصعب تعريف التصوف بعبارة جامعة مانعة لكثرة التعاريف التي وردت على ألسنة كثير من العلماء وبعض كبار المتصوفة والتي لا تخرج في عمومها عن أنه وصف حال الإنسان المنقطع للعبادة الزاهد في الدنيا المعرض عن زخارف الحياة. وهذا بعض أقوالهم:

١ـ يُعرِّف شيخ الإسلام ابن تيمية التصوف بأنه: «نوع من الصديقية فهو أي الصوفي الصدِّيق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصدِّيق من أهل هذه الطريق كما يقال صدِّيقوا العلماء وصدِّيقوا الأمراء فهو أخصّ من الصدِّيق المطلق ودون الصدِّيق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم»[٢].

٢ـ يُعرِّف ابن خلدون أصل التصوف بأنه: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يُقْبِل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد للخلوة في العبادة»[٣].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٣٣٤).
(٢) فتاوى ابن تيمية (١١/١٧).
(٣) مقدمة ابن خلدون (٣٣٣).

٣ـ سهل بن عبدالله التستري[١] يُعرِّف الصوفي بأنه: «من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر»[٢].

وكما هو واضح فإن تعريفات المتصوفة يكتنفها الغموض وتطغى عليها الإشارات العامة والعبارات المنمقة.

---

(١) سهل بن عبدالله التستري: شيخ العارفين الصوفي الزاهد له كلمات نافعة ومواعظ حسنة، وقدم راسخ في الطريق كان يحث على طلب العلم، وعندما سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث قال: حتى يموت ويصب باقي حبره في قبره، ومن كلامه: أصولنا ستة: التمسك بالقرآن، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، والتوبة، وأداء الحقوق. مات سنة (٢٨٣هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠). وشذرات الذهب (٢/ ١٨٢). وطبقات الشعراني (١/ ٦٦).

(٢) التعرف للكلاباذي (ص٩).

المبحث الثاني
نشأة التصوف

من الخطأ الواضح أن يفسر سلوك بعض العبَّاد في القرنين الأول والثاني والمتمثل في نزعتي الزهد والتقشف وكثرة العبادة والإقبال على الأعمال الصالحة بأن هذا السلوك هو الأساس التاريخي لظاهرة التصوف وإذا كان قد وجد في القرون المفضلة من اختط لنفسه هذا المنهج صقلاً لنفسه وتطهيراً لروحه فإن ذلك لم يكن إلاَّ استجابة للدعوة التي تضمنتها رسالة الإسلام الخالدة في الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا بالمفهوم الشرعي للزهد.

وقد اختلفت آراء الباحثين في نشأة التصوف وفي البيئة التي نبتت فيها بذرته الأولى ويمكن حصر هذه الآراء في رأيين اثنين:

الأول: أن التصوف إسلامي النشأة وأن أصوله العقائدية والسلوكية مستمدة من الكتاب الكريم والسنة المطهرة وفعل السلف ويتزعم أصحاب هذا القول ابن خلدون حيث يقول في مقدمته:

«هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى

مخالطة الدنيا: اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[١].

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بأن الأصول التي يبني عليها المتصوفة مذهبهم من أحوال ومقامات ومجاهدات كالتوبة والورع والزهد والذكر والصبر والمراقبة كلها أمور أمر الله بها في كتابه وحث عليها رسوله ﷺ في سنته وطبّقها وعمل بها صحابته رضوان الله عليهم وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون ـ رضي الله عنهم ـ حتى جعل الشعراني في طبقاته الخلفاء الراشدين أول رجال طبقات الصوفية[٢].

وسبب ذلك هو الخلط بين مفهوم الزهد والورع والمراقبة، والتي هي خلق الأنبياء وعباد الله الصالحين الذين يؤثرون ما عند الله على التنعم والتلذذ والاشتغال بالمباحات والتي يخشون أن تجرهم إلى الوقوع في المخالفات فكانوا يتركون ما لا بأس به مخافة الوقوع فيما به بأس وهذا لكمال علمهم بالله عز وجل ورغبتهم فيما عنده، وبين التصوف بمناهجه وفلسفته وهواتفه وأحواله.

الثاني: أن الإسلام حين جاء كانت الصوفية منتشرة في كل البلاد التي دخلها فكانت منتشرة في جزيرة العرب باسم الكهانة وفي الهند وبلاد فارس لأن ديانتهم تقوم على أساس الرياضة والرؤى والمكاشفات، وكانت منتشرة في النصرانية التي كانت تسيطر على مصر والشام والعراق واليمن. وكذلك اليهودية وكان يطلق على

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٣٣٣).

(٢) الطبقات للشعراني (١/ ١٥ـ٢٣).

الشيخ اسم الكاهن أو العارف أو العرَّاف أو ما يرادفها في اللغات الأخرى.

ولما جاء الإسلام اختبأت وراء الأسوار حتى استطاع كهانها أن يجدوا لها صيغة ملائمة أظهروها بها أمام أعين الناس ثم دعوهم إليها.

وقد عرف هذه الحقيقة بعض علماء الصوفية القدامى مثل شهاب الدين السهروردي[١] الذي يقول:

«وأما أنوار السلوك في هذه الأزمنة القريبة فخميرة الفيثاغوريين رفعت إلى أخي أحميم (أي ذا النون المصري)[٢] ومنه نزلت إلى سياد تستر أي (سهل التستري) وشيعته وأما خميرة الخسروانيين في السلوك فهي نازلة إلى سيار بسطام (أبويزيد البسطامي)[٣]. ومن

---

(١) الفيلسوف شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي كان يتوقد ذكاءً، إلاَّ أنه قليل الدين، وكان بارعاً في أصول الفقه مفرطاً في الذكاء، ولم يناظر أحداً إلاَّ أربى عليه. قال عنه الذهبي: «كان أحمق طياشاً منحلاً». قتل سنة (٥٨٧هـ). سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٠٧).

(٢) ذا النون المصري: شيخ الديار المصرية ثوبان بن إبراهيم كان لا يتقن الحديث، وكان واعظاً فصيحاً عالماً حكيماً، وقد رمي بالزندقة. مات سنة (٢٤٦هـ). سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢). وطبقات الشعراني (١/ ٥٩).

(٣) أبويزيد طيفور بن عيسى البسطامي: كان يقول: «لو نظرت إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشرع» ونقل عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها ولكن كما يقول الذهبي: الشأن في ثبوتها عنه فتطوى ولا تروى إذ ظاهرها إلحاد مثل سبحاني، وما في الجبة إلاَّ الله، وماالمحدثون إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن=

بعده إلى فتى بيضاء (الحلاج)[١] ومن بعده إلى سيار آمل وخرقان (أبي الحسن الخراقاني)[٢]»[٣].

وخلاصة هذا الرأي أن التصوف ليس إسلامي النشأة وإنما هو مزيج من العبادات الفارسية واليونانية والنصرانية واليهودية ودليل أصحاب هذا الرأي بالإضافة إلى ما ذكرنا أن علماء الصوفية إنما نشأوا في بلاد فارس وأن هناك أوجه شبه كثيرة بين الصوفية وبين أهل تلك البلدان في اعتقاداتهم وعباداتهم وخاصة في عقائد الرمز والظاهر والباطن والتأويل وغيرها. ويؤيد هذا الرأي ما ذهب إليه أبونصر السراج[٤] من أن منشأ التصوف كان في الجاهلية قبل الإسلام[٥].

= الرب. توفي سنة (٢٦١هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٦). وطبقات الشعراني (١/ ٦٥).

(١) الحلاج هو الحسين بن منصور الصوفي كان جده مجوسياً صحب سهل التستري والجنيد وأكثر الترحال، وقد تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ لسوء سيرته ونسبوه إلى الحلول والزندقة، قتل مصلُوباً بعد أن قطعت يداه ورجلاه وضرب ألف سوط وأحرقت جثته ونثر رمادها في نهر دجلة سنة (٣٠٩هـ). سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣١٣). وطبقات الشعراني (١/ ٩٢).

(٢) لم أجدله ترجمة في كتب السير والتراجم ولا في طبقات الصوفية.

(٣) ولاية الله والطريق إليها لإبراهيم هلال (١٧١).

(٤) عبدالله بن علي الطوسي أبونصر السراج: زاهد كان شيخ الصوفية على طريقة السنة، له كتاب اللمع في التصوف. مات سنة (٣٧٨هـ). شذرات الذهب (٣/ ٩١). الأعلام للزركلي (٤/ ١٠٤).

(٥) اللمع لأبي نصر السراج (٤٢).

وبالتأمل والنظر في كلا الرأيين نجد أن المبالغة قد طغت على أصحاب كل رأي.

فالرأي الأول بالغ أصحابه فيه حين جعلوا التصوف إسلامي النشأة ووصفوا جميع الصحابة وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون بأنهم من المتصوفة.

وأصحاب الرأي الثاني بالغوا أيضاً حين جعلوا أصول التصوف مستنبطة من الديانات القديمة ومن المذاهب والفلسفات اليونانية وإن كان أصحاب هذا الرأي على حق إذا ما عنوا به التصوف المنحرف الذي وصل بأصحابه إلى القول بالحلول ووحدة الوجود.

وأعدل الأقوال في نشأة التصوف هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يذهب إلى أن بداية نشأته كانت في أوائل القرن الثاني لكنه لم يشتهر إلاَّ في القرن الثالث فيقول:

«أول ما ظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبدالواحد بن زيد[١] وعبدالواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة

---

(١) عبدالواحد بن زيد الزاهد: كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان فكثرت المناكير في حديثه حتى قال عنه النسائي: متروك الحديث. أصيب بالفالج فدعا الله أن يطلقه وقت الوضوء، فكان إذا أراد أن يتوضأ انطلق، فإذا رجع إلى سريره فلج، وكان ذا وعظ مؤثر لدرجة أن بعض الجالسين في مواعظه يموتون. قال عنه الذهبي: رمي بالقدر وهو من كبار الزهاد والكمال عزيز. مات سنة (١٧٧)هـ). سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٤٩).

بصرية».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ:

«ولهذا كان غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عبَّاد أهل البصرة»[1].

وقد حرَّر الإمام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ نبذة مختصرة عظيمة الفائدة عن نشأة التصوف وكيف بدأ ثم كيف انتهى به الحال إلى أن أصبح رسوماً وإشارات وبدعاً وضلالات. يقول ـ رحمه الله ـ:

«والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاَّب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ:

«وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة حاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى.

وعلى هذا كان أوائل القوم فلبَّس إبليس عليهم في أشياء ثم لبَّس على من بعدهم من تابعيهم كلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١١/٦ـ٧).

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود هو العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم وشبَّهوا المال بالعقارب ونسوا أنه خُلِقَ للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري...» الخ.[١]

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص(١٩٩) وما بعدها.

المبحث الثالث
مراحل التصوف وتطوره

لقد بدأ التصوف كما رأينا بالزهدوالعبادة في البصرة ثم تطور إلى طرق صوفية منظمة ثم إلى انحرافات عقدية لا تمت إلى الإسلام بصلة وعليه يمكن تقسيم التصوف إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

مرحلة العبَّاد والزهَّاد والذي كان يغلب على أصحابها العزلة والبعد عن الناس والزهد في الدنيا مع التزامهم في الغالب بآداب الشريعة مع تغليب جانب الخوف الشديد والبكاء المستمر.

ومن أبرز رجال هذه المرحلة عامر بن عبدالله بن الزبير الذي كان يواصل الصيام ويكثر من العبادة حتى قال له والده الصحابي الجليل عبدالله بن الزبير: «يا بني لقد رأيت أبابكر وعمر ولم يكونا هكذا»[١].

ومنهم طلق بن حبيب[٢] الذي كان من الزهاد الكبار ومن

---

(١) عامر بن عبدالله بن الزبير: الإمام الرباني أحد العُباد. اشترى نفسه من الله ست مرات، يعني تصدق بديته ست مرات، سمع الأذان وهو يحتضر فقال: خذوا بيدي. فقيل: إنك عليل. فقال: أسمع داعي الله ولا أجيبه. فأخذوا بيده حتى دخل مع الإمام في صلاة المغرب، فركع ركعة ثم مات. قال عنه الإمام مالك: كان عامر ربما انصرف من العتمة فيعرض له الدعاء فلايزال يدعو إلى الفجر. سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٩).

(٢) طلق بن حبيب العنزي: كان طيب الصوت بالقرآن برًّا بوالديه ممن يخشى الله،=

العلماء العاملين، ومنهم بشر الحافي[١] الذي كان رأساً في الإخلاص والورع، والجنيد بن محمد بن الجنيد الذي كان يقول: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب ولم يكتب الحديث ولم يتفقه فلا يقتدي به»[٢].

وغيرهم كثير ممن كانت مقاصدهم حسنة ولكن ربما وقع بعضهم في بعض التجاوزات إما لقلة علمهم أو لأنهم عملوا بما وقعت عليه أيديهم من الأحاديث الضعيفة وهم لا يدرون. وهؤلاء يعتبرون من أوائل الصوفية في مراحلها الأولى حيث جمعوا بين الزهد والتشدد في الدين والتعمق في الخطرات مما لم يكن معهوداً

= لما كانت فتنة ابن الأشعث قال طلق للناس: اتقوها بالتقوى، فقيل له: صف لنا التقوى؟ فقال: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله. وكان يقول: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين. قال عنه أبوحاتم: طلق صدوق يرى الإرجاء. سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠١).

(١) بشر بن الحارث بن عبدالرحمن المشهور بالحافي: الإمام الزاهد ولد سنة (١٥٢هـ) ورحل في طلب العلم وكان يقول: لا أعلم أفضل من طلب الحديث لمن اتقى الله وحسنت فيه نيته، وأما أنا فأستغفر الله من طلبه ومن كل خطوة خطوت فيه. قال عنه إبراهيم الحربي: ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ولا أحفظ للسانه. كان في كل شعرة منه عقل وما عرف له غيبة لمسلم. مات سنة (٢٢٧هـ). سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٦٩). وشذرات الذهب (٢/ ٦٠).

(٢) الرسالة للقشيري (١/ ١١٨).

عند السلف .

وقد استحدث في هذه المرحلة الاستماع إلى القصائد الزهدية التي تلقى بالألحان المطربة. ولعل أبرز سمات هذه المرحلة ما يلي :

١ـ **التمسك بالسنة في الغالب عدا بعض التجاوزات**[(١)] .

٢ـ احترام العلم والعلماء .

٣ـ قلة الفقه في الدين وعدم الاهتمام بالحديث[(٢)] .

٤ـ الاهتمام بالوعظ والإكثار من القصص المأخوذة من أهل الكتاب والأمم السالفة[(٣)] .

٥ـ تغليب جانب الخوف والحزن ومواصلة الصوم والاضطراب والصعق والغشي عند سماع القرآن[(٤)] .

٦ـ البعد عن مجالس العلم والقعود عن الكسب[(٥)] .

وهذه السمات لم تكن لها مناهج محددة وإنما كانت سمات شخصية تقع من بعض الأفراد وتنتج غالباً عن الجهل والغفلة .

المرحلة الثانية:

مرحلة طلائع الصوفية وما صاحبها من ظهور الطرق والمصطلحات الصوفية الغامضة ونزعات الأهواء والبدع وعلم

---

(١) المصدر السابق (١/ ١١٨).

(٢) الطبقات للشعراني (١/ ٥٣). واصطلاحات الصوفية للكاشاني (٤٥).

(٣) الطبقات للشعراني (١/ ١٨٦).

(٤) الطبقات للشعراني (١/ ٥٢، ٥٥).

(٥) الطبقات للشعراني (١/ ٥١).

الإشارات والمكاشفات والذوق إلى غير ذلك.

وفي هذه المرحلة نشأ مايسمى بعلم الظاهر والباطن وإعلان سقوط التكاليف الشرعية عن الأولياء بزعمهم أنهم اطلعوا على علم الحقيقة عن طريق الكشف «الإلهام»[١].

وأقطاب هذه المرحلة هم مشايخ الطرق الصوفية المشهورون مثل:

١ـ أبي الحسن الشاذلي[٢] شيخ الطائفة الشاذلية الذي يصفه الشعراني في طبقاته بقوله: كان كبير المقدار عالي المنار له عبارات فيها رموز وكان قطب الزمان والحامل في وقته لواء أهل العيان حجة الصوفية وعَلَمُ المهتدين وزين العارفين أستاذ الأكابر وزمزم الأسرار ومعدن الأنوار»[٣].

وبالرغم من أنه كان يقول: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة»[٤].

---

(١) انظر: فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤١٧)ـ ٤٣٩).

(٢) علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي: شيخ الطائفة الشاذلية الضرير الزاهد نزيل الأسكندرية، مات بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج سنة (٦٥٦هـ). الطبقات للشعراني (٢/ ٤).

(٣) الطبقات للشعراني (٢/ ٤).

(٤) الطبقات للشعراني (٢/ ٤).

إلاَّ أنه لم يتقيد بهذا المبدأ فقد نقل عنه الشعراني أيضاً قوله وقد سئل عن شيخه فقال:

«كنت أنتسب إلى عبدالسلام بن مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد بل أعوم في عشرة أبحر محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح الأكبر»[١].

ومن العجيب جدًّا أن يصنف شيخ الجامع الأزهر السابق عبدالحليم محمود كتاباً يمجد فيه الشاذلي ويثني علي طريقته وينقل أن النبي ﷺ كلَّم الشاذلي من داخل حجرته الشريفة فيقول:

«فلما قدم المدينة زادها الله تشريفاً وتعظيماً وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه عريان الرأس حافي القدمين يستأذن على رسول الله ﷺ تسليماً فسئل عن ذلك فقال: حتى يؤذن لي فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة يا علي أدخل»[٢].

ولست بحاجة إلى التعليق على هذه الخرافة الباطلة فإن أفضل الأمة وخير القرون أصحاب رسول الله ﷺ من اختارهم الله لصحبة نبيه ولنصرة دينه ما كانوا يفعلون هذا الفعل المبتدع وما كانوا يقفون على باب مسجده ﷺ حاسري الرؤوس حفاة الأقدام ينتظرون الإذن لهم بالدخول إلى المسجدثم كيف استطاع الشاذلي أن يسمع صوت النبي ﷺ وقد مات صلوات الله وسلامه عليه بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[٣] وغير ذلك من الآيات.

---

(١) الطبقات للشعراني (٢/ ٦).

(٢) المدرسة الشاذلية الحديثة للدكتور عبدالحليم محمود (ص٣٢).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

٢ـ ومن أقطاب هذه المرحلة أيضاً: أحمد الرفاعي[١] الذي يزعم أتباعه أنه «لما حج سنة ٥٥٥هـ وقف تجاه الحجرة النبوية وقال: السلام عليكم يا جدي. فقال له عليه أفضل الصلاة والسلام: عليك السلام يا ولدي. وسمع ذلك كل من في المسجد النبوي ومدَّ له رسول الله يده الشريفة من قبره فقبَّلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل ثم قالوا: وإنكار هذه الكرامة كفر»[٢].

بل تصديق هذه الخرافة جهل ونقص عقل إذ كيف خرجت يده ﷺ من قبره وهو قد فارق الحياة ويعيش فترة البرزخ كأكمل حياة الشهداء.

وقد وقعت بين الرفاعية وبين شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مناظرة عظيمة أمام أمير دمشق حين زعموا أن بإمكانهم دخول النار والخروج منها سالمين فتحداهم شيخ الإسلام بأن يدخل معهم النار شريطة أن يغتسلوا بالماء الحار والخل لإزالة ما كانوا يطلون به أجسامهم من الأدوية التي كان يضعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج فمن أحرقته النار فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، وقد أظفره الله عليهم وطلبوا التوبة وقد ذكر شيخ الإسلام القصة كاملة في الفتاوى[٣].

---

(١) أحمد بن علي: بن يحيى الرفاعي الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية وتسمى الأحمدية، والبطائحية، ولد بالعراق وتفقه وتصوف فانضم إليه خلق كثير وهو مغربي الأصل. مات سنة (٥٧٨هـ). سير أعلام النبلاء (٢١/ ٧٧). وشذرات الذهب (٤/ ٢٥٩).

(٢) قلادة الجواهر في ذكر الرفاعي وأتباعه الأكابر (ص١٠٤).

(٣) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٤٥).

ويمكن حصر السمات البارزة لهذه المرحلة فيما يلي:

١ـ ظهور مشايخ الطرق الصوفية ووضع الأصول والمناهج العامة لها.

٢ـ الإكثار من دعوى الإلتزام بالكتاب والسنة ونهج السلف ثم وجود المفارقات لهذا الشعار عند التطبيق[١].

٣ـ وجود بعض الشطحات في الألفاظ والسلوك والتصرفات مما أنكره عليهم علماء السلف ووصفوهم به بالضلال[٢].

٤ـ ظهور القصائد الصوفية وتطور مفهوم السماع وما يرافقه من السكر والوجد والرقص[٣].

٥ـ ظهور المصطلحات الصوفية مثل الكشف والحقائق والأسرار والفناء والمشاهدة وغيرها[٤].

المرحلة الثالثة:

تعد هذه المرحلة من أخطر مراحل التصوف فقد بدأت الانحرافات في الظهور بعد تسرب الفلسفة اليونانية والاتجاهات الفارسية والمجوسية والتأثر بالديانات اليهودية والنصرانية وأبرز سمات هذه المرحلة يمكن حصرها فيما يلي:

١ـ تكوين أصول الصوفية ومدى تأثرها بالنصرانية وقولها بالاتحاد والحلول وبالمجوسية وتقديسها للأشخاص وبالهندية وقولها

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٥٨٥).

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٧٠، ٧٤، ٧٥).

(٣) الرسالة للقشيري (٢/ ٦٤٥).

(٤) دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير (٢٣٥).

بالفناء والتناسخ وبالفلسفة اليونانية وإلحادها وزندقتها والقول بوحدة الوجود[١].

٢ـ دعوى العلم اللدني والتلقي عن الله مباشرة كقول البسطامي أخذتم دينكم ميِّت عن ميِّت أما نحن فنأخذ عن الحي الذي لا يموت[٢] وقول ابن عربي: «والله ما كتبت في الفتوحات المكية حرفاً إلاَّ عن إملاء إلهي أو إلقاء رباني أو نفث روحاني أو روح كياني»[٣]. وأنا أقول بل إيحاء شيطاني.

٣ـ وقوعهم في الكثير من البدع الاعتقادية كالتشيع والتجهم والإرجاء والقدر لبعدهم عن مناهج التلقي الصحيحة وهي الكتاب والسنة[٤].

٤ـ وقوع بعضهم في الفواحش والرذائل وزعمهم أنها من باب الكرامات[٥].

وبعد فهذه ملامح رئيسة عرضت بعضها بإيجاز للدلالة على المراحل التي مرت بها الصوفية وكيف بدأت زاوية الانحراف بسيطة ثم اتسعت كلما ابتعدوا عن الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح حتى آل بهم الحال إلى الإلحاد والقول بالاتحاد ووحدة الوجود والحلول والتحلل من الشرائع نعوذ بالله من ذلك.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/ ٨٢). وتلبيس إبليس لابن الجوزي (٣٤٥).

(٢) الطبقات للشعراني (١/ ٥).

(٣) الفتوحات المكية لابن عربي (٣/ ٤٥٦).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/ ٧).

(٥) انظر: طبقات الشعراني (١/ ٤٦، ٢/ ٤٣، ٢/ ١٢٩).

المبحث الرابع
الآداب عند الصوفية

تعريف الأدب: الأدب عند الصوفية ليس فقط بمدلوله العام أي الأدب الظاهر إذ ربما يكون رياءً أو نفاقاً أو مجاملة واسترضاءً وإنما الأدب عندهم هو الأدب الباطني الذى يرجى منه كنس القلب من جميع الآفات وما يسيطر عليه من الرغبات والشهوات[١].

وحقيقته اجتماع جميع خصال الخير فالأديب هو الذي اجتمع فيه خصال الخير ومنه أخذت المأدبة[٢].

والشيخ عند الصوفية: يعني الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد الكمال فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بذواتها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها[٣].

أما المريد: ويعرفه المتصوفة:

«بأنه المقبل على الله عز وجل وطاعته المُولِّي عن غيره وإجابته يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة ويصمُّ عما سوى ذلك ويُبْصِر بنور الله عز وجل فلا يرى إلاَّ فعله فيه وفي غيره من سائر الخلائق ويعمى عن غيره. ينصح نفسه أبداً فلا يجيبها

---

(١) معجم ألفاظ الصوفية، د حسن شرقاوي: (٣٥).

(٢) الرسالة لقشيري: (٢/٥٥٨).

(٣) معجم اصطلاحات الصوفية، عبدالرزاق الكاشاني: (١٧٢).

إلى محبوبها ولذاتها وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله ويصبر عن معاصي الله ويرضى بقضاء الله ويختار أمر الله ويستحيي من نظر الله ويبذل مجهوده في محاب الله ويتعرض أبداً لكل سبب يوصله إلى الله»(١).

وكلمة المريد يبدو أنها مصطلح تعارف عليه الناس آنذاك وأطلقوه على الشاب إذا استقام على أمر الله وتمسك بطاعته. كما أطلق الناس في زماننا مصطلح الالتزام على الشباب الذين يعودون إلى الله ويتمسكون بطاعته. إلاَّ أن هذا الاصطلاح تطوّر وخرج عن مدلوله وأصبح لقباً يطلق على من ينتسب إلى التصوف في بداية تصوفه.

ومن ضرورات السلوك عند الصوفية أن يكون لكل مريد شيخ يدله على الطريق ويهديه سواء السبيل

ومعنى هذا أن الشيخ هو الأساس في التربية الصوفية وهذا شيء غير مسلَّم به عند علماء أهل السنة والجماعة فرغم أنهم يرون أن كل طالب علم لابدَّ له من معلم يتلقى عنه ذلك العلم فهم يرون أيضاً أنه بالإمكان للطالب إذا كان ممن يملك القدرة على القراءة والفهم والتمييز وكان لديه مصادر للعلم أن يحصله دون الحاجة إلى شيخ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين

---

(١) الغنية للجيلاني: (٢/١٥٨).

بإحسان فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر ولا يتعين ذلك في شخص معين ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين فكل من أفاد غيره إفادة دينية فهو شيخه فيها وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم. ولا يُخص أحدٌ بمزيد موالاة إلاَّ إذا ظهر له مزيد إيمان وتقوىٰ، فيُقَدَّم من قدَّم الله تعالى ورسوله ويُفَضَّل من فضَّله الله ورسوله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[1]»[2].

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١١/ ٥١١).

المبحث الخامس
السماع عند الصوفية

السماع في اللغة: الغناء وقيل الذكر المسموع الحسن الجميل، وكل ما التذذته الأذن من صوت حسن سماع[١].

وفي اصطلاح المتصوفة يعرفه ذو النون المصري بأنه: «وارد حق يزعج القلوب إلى الحق فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق»[٢].

وبالغ فيه بعضهم فعدَّ مجالسه من مجالس نزول الرحمة يقول الجنيد: «تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن، عند السماع فإنهم لا يسمعون إلاَّ عن حق ولا يقولون إلاَّ عن وَجْدٍ وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلاَّ عن فاقة، وعند مجاراة العلم فإنهم لا يذكرون إلاَّ صفات الأولياء»[٣].

أما موقف السلف من أهل السنة والجماعة من مسألة السماع هذه فقد حرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وأوضح السماع المشروع من السماع المبتدع فقال:

«السماع الذي أمر الله به ورسوله واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق هو سماع القرآن، فإنه سماع النبيين وسماع العالمين وسماع العارفين، وسماع المؤمنين. قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ

(١) لسان العرب لابن منظور: (٨/ ١٦٥).

(٢) اللمع للطوسي: (٣٤٢).

(٣) الرسالة للقشيري: (٢/ ٦٤٥).

ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[(٤)]».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وكما أثنى الله على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه وساق بعض الآيات القرآنية الدالة على الوعيد الشديد لمن أعرض عن سماع القرآن الكريم ثم قال:

وهذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ويبغضه».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وهذا سماع له آثار إيمانية من

(١) سورة مريم، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٧، ١٠٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢، ٤.

المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها، ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، وإقشعرار الجلد، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنىٰ عليهم في القرآن، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة الاضطراب، والاختلاج والإغماء، أو الموت والهيام، وأنكر بض السلف ذلك إما لبدعتهم وإما لحبهم.

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولَّد عنه معذوراً لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين كما ذمَّ الله الذين قال فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[1] وقال ـ عز وجل ـ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] ولو أثَّر فيهم آثاراً محمودة لم يجذبهم عن حدِّ العقل لكانوا كمن أخرجهم إلى حدِّ الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين.

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك: إما نشيد مجرد نظير الغبار وإما بالتصفيق ونحو ذلك، فهو السماع المحدث في الإسلام فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنىٰ عليهم النبي ﷺ حيث قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيه**

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١]. وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن»[٢].

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال: «هو محدث أكرهه قيل له: إنه يرق عليه القلب. فقال: لا تجلسوا معهم. قيل له: أيهجرون؟ فقال: لا يبلغ بهم هذا كله»[٣]. فبيَّن أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا في مصر ولا في العراق ولا خراسان ولو كان للمسلمين به منفعة في دينهم لفعله السلف ولم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم[٤] ولا الفضيل بن عياض ولا معروف الكرخي[٥]، ولا السري السقطي[٦]، ولا

---

(١) رواه البخاري ح: (٣٦٥٠).

(٢) الفكر الصوفي، عبد الرحمن عبد الخالق: (٦٨٤).

(٣) طبقات الحنابلة لأبي يعلى: (١/ ٣٩٦) بمعناه.

(٤) إبراهيم بن أدهم بن منصور: الإمام العارف سيد الزهاد أبوإسحاق العجلي نزيل الشام، قال عنه النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهاد. كان يقول: الزهد الفرض هوالزهدفي الحرام وزهد السلامة وهوالزهد في الشبهات،وزهد الفضل وهو الزهد في الحلال. مات سنة (١٦٢هـ). سير أعلام النبلاء(٧/ ٣٨٧).

(٥) معروف بن فيروز الكرخي: عَلَم الزهاد. من كلامه: «إذا أراد الله بعبد شرًّا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل» وكان مجاب الدعوة، مات سنة (٢٠٠هـ) رحمة الله عليه. سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٩).

(٦) هناد بن مصعب بن أبي بكر السري: الإمام الحجة القدوة زين العابدين صاحب كتاب الزهد، ولد سنة (١٥٢هـ). قال عنه أبوحاتم: صدوق. وقال =

أبوسليمان الداراني[١]، ولا مثل الشيخ عبدالقادر والشيخ عدي[٢] والشيخ أبي البيان[٣]، ولا الشيخ حياة[٤]، وغيرهم بل في كلام طائفة من هؤلاء كالشيخ عبدالقادر وغيره النهي عنه وكذلك أعيان المشايخ».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ:

«وبالجملة فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلاَّ وقد حدَّث به ولا شيئاً يبعد عن النار إلاَّ وقد حدَّث به وإن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله فإن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٥]. وإذا وجد فيه منفعة لقلبه ولم يجدشاهد ذلك لا من الكتاب ولا من السنة لم يلتفت إليه»[٦].

= النسائي: ثقة. مات سنة (٢٤٣هـ). سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٦٥).

(١) أبوسليمان الداراني: الإمام الكبير الزاهد عبدالرحمن بن أحمد ولد سنة (١٤٠هـ) من كلامه: «من وثق بالله في رزقه زاد في حسن خلقه وأعقبه الحلم، وسخت نفسه وقلَّت وساوسه في صلاته» مات سنة (٢٠٥هـ). سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢). وشذرات الذهب (٢/ ١٣).

(٢) عدي بن مسافر الأموي: أحد أركان التصوف وأعلى العارفين بها كان الشيخ عبدالقادر ينوه بذكره ويثني عليه وله مجاهدات عظيمة. مات سنة(٥٥٨هـ). الطبقات للشعراني (١/ ١١٨).

(٣) لم أعثر له على ترجمة لعدم وضوح اسمه.

(٤) حياة بن قيس الحراني من أجلاء المشايخ وعظماء العارفين صاحب الكرامات والمقامات، مات سنة (٥٨١هـ). الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٣٢).

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٦) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٥٨٧ ـ ٥٩٥).

المبحث السادس
الولاية عند أهل السنة وعند المتصوفة

أولاً: الولاية عند أهل السنة والجماعة :

الولاية لغة: مصدر ولى يلية ولاية: «إذا دنا منه وقرب أو قام به وملك أمره أو نصره وأحبه»(١).

وفي الاصطلاح: عند أهل السنة والجماعة لا يختلف عنه في المعنى اللغوي فهو يدور على القرب والحب والنصرة.

وولاية الله لعبده هدايته إلى طاعته ومحبته ونصرة دينه، وولاية العبد لله تقتضي الإيمان به سبحانه والتقرب إليه بطاعته وترك مساخطه وخشيته ومراقبته قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾(٢).

وهناك فرق بين ولاية الله سبحانه للعبد وبين ولاية العبد لربه - عز وجل - وهو أن الله تعالى لا يوالي عبده لافتقار أو حاجة إليه وإنما يواليه إكراماً له وتفضلاً عليه لغناه عمن سواه وافتقار كل ما عداه إليه.

فأما العبد فإنه يوالي ربه لفقره وحاجته إليه إذ هو دائماً في

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور: (٤٠٧/١٥)

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٢، ٦٤

حاجة ماسة إلى معونة ربه ونصرته وإدنائه وتقريبه فالمنة لله تعالى على عبده حين يواليه ويقبله ولا منة للعبد بحال من الأحوال»[١].

وبالجملة فإن كل من أكرمه الله بالهداية فآمن بالله واتقاه وتقرب إليه بفعل طاعته وترك معصيته ووالى من يواليه وعادى من يعاديه فهو ولي الله سبحانه، ولذا كان كل من عادى وليًّا لله عز وجل فكأنما ناصب الله العداء، كما في الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أنه يقول:

«من عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[٢].

وعلى هذا يكون معنى أولياء الله أنهم خلَّص المؤمنين الذين قرَّبهم الله منه بسبب طاعتهم له وتركهم لمعصيته والذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾[٣].

والولي عند أهل السنة غير معصوم بل هو عرضة للخطأ، يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

«وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا

---

(١) عقيدة المؤمن للجزائري: (١٧٣).

(٢) رواه البخاري ح: (٦٥٠٢).

(٣) سورة يونس، الآية: ٦٣

يخطىء بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به وتكون مما نهى الله عنه ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبَّسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان؛ فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[١].

وثبت في الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: قد فعلت.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ قال: دخل في قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه فقال النبي ﷺ: قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ قال الله: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥، ٢٨٦.

بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ قال: قد فعلت.[١]

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر»[٣].

فلم يؤثم المجتهد المخطىء بل جعل له أجراً على اجتهاده وجعل خطأه مغفوراً له. ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه.

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الايمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله إلاَّ أن يكون نبيًّا، بل ولا يجُوز لولي لله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً[٤] أو محادثة[٥] وخطاباً من الحق بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله، وإن

---

(١) رواه مسلم ح: (١٢٦).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٣) رواه البخاري ح: (٦٩١٩)، ومسلم ح: : (١٧١٦).

(٤) الإلهام ما يلقى في الروح بطريق الفيض وقيل: الإلهام هو ما وقع القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة وهو ليس بحجة عند العلماء إلاَّ عند الصوفية. التعريفات للجرجاني: (٥١).

(٥) المحادثة في اصطلاح الصوفية: خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة كالنداء من الشجرة لموسى ـ عليه السلام ـ المرجع السابق.

خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف عنه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط.

منهم: من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدَّثه به قلبه عن ربه وسلَّم إليه جميع ما يفعله.

ومنهم: من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً.

وخير الأمور أوسطها وهو أن لا يجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً فلا يتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده»[1].

ولما كان من الجائز على الولي أن يخطىء باعتباره غير معصوم، فإن معنى ذلك أن طاعته غير واجبة، ومتابعته غير لازمة إلاَّ فيما وافق الكتاب والسنة، كما لا يجب تصديقه في أخباره وأقواله حتى تعرض على الكتاب والسنة فإن وافقهما وجب قبولها وإن خالفهما وجب طرحها وردها مهما كان قائلها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«وقد اتفق سلف الأئمة وأئمتها على أن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلاَّ رسول الله ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم. فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف الأولياء فإنه لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١١/ ٢٠١).

الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله وله أجر على اجتهاده»[١].

هذا هو مفهوم الولاية عند أهل السنة والجماعة على الإجمال إلاَّ أنه ينبغي الإشارة إلى أنه بالرغم من أن كل مؤمن يعتبر وليًّا لله عز وجل إلاَّ أن الولاية تتفاوت بحسب تفاوت الإيمان والتقوى والعمل الصالح. وكلما ازداد يقين العبد وترقَّى في درجات الكمال والصلاح واتصف بالتقوى كان أعظم ولاية عند الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الولاية عند المتصوفة:

يعرف المتصوفة الولاية بأنها «قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب التمكين»[٢].

والولي عندهم «من تولَّى الحق أمره وحفظه من العصيان ولم يُخَلِّه ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾[٣]»[٤].

ويبدو أن تأثير الشيعة كان واضحاً على الصوفية في إطلاق لفظ الولاية على الشيخ والعالم فإن الرافضة هم أول من أطلق الولي على أئمتهم ابتداءً بعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم بقية

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٠٨/١١).
(٢) اصطلاحات الصوفية للكاشاني: (٧٩).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.
(٤) اصطلاحات الصوفية للكاشاني: (٧٩).

الأئمة من بعده وقد أضافوا إليها دعوى العلم اللدني والعصمة وسرت عدواها إلى الصوفية فقالوا بأن أولياءهم يتلقون عن الله مباشرة وأنهم معصومون من الخطأ[١].

وقد لا يصرح المتصوفة بدعوى عصمة أوليائهم ولكنهم يطلقون عليهم كلمة الحفظ ومجمل أحوالهم وعباراتهم توحي بأن معنى الحفظ أي العصمة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«والغالية في المشايخ يقولون أن الولي محفوظ والنبي معصوم وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال من يرى أن الشيخ أو الولي لا يخطىء ولا يذنب»[٢].

وإنما ذهبوا إلى كلمة الحفظ دون العصمة لإيهام الناس بأن تصوفهم يعتمد على الكتاب والسنة.

ومن تعريف الصوفية للولاية نلاحظ أن لها معنى آخر يختلف عن معانيها عند أهل السنة والجماعة فليس من شروط الولاية عندهم أية صفات للإيمان أو التقوى والعمل الصالح إذ الولاية عندهم تُوهَبُ من الله عز وجل دون سبب في العبد وهذا واضح من التعريف السابق من قولهم بأن الولي من تولى الحق أمره إلخ...

وقد ترتب على هذا أن جعلوا المجاذيب والملاحدة أولياء لله عز وجل بمجرد أن ظهر على أيديهم بعض خوارق العادات كالدخول في النيران وضرب الجسم بالسهام والسكاكين واللعب

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي: (٢/ ١٠).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية: (١/ ٤٤).

بالعقارب والحيات وغير ذلك من أعمال السحر والكهانة والشعوذة.

كما جعلوها للمجانين والصبيان الشذاذ حتى عدوا من الأولياء من يأتي الحمارة في وضح النهار وأمام الأسماع والأبصار[١]، ومن يشرب الخمر جهاراً نهاراً ويمارس الزنا واللواط عياناً زاعمين أن الولي لا تضره معصية وأن الخمر ينقلب في بطن الولي لبناً خالصاً، وأن الزانية تصبح زوجة للولي بمجرد معاشرتها[٢] ومن يخطب الجمعة عارياً[٣].

بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك فزعموا أن الولي يتصرف في الأكوان ويقول للشيء كن فيكون.

وأن أربعة من الأولياء يمسكون بالعالم من جوانبه الأربعة ويسمون عندهم الأوتاد.[٤]

وسبعة أولياء آخرين كل منهم في واحدة من السموات السبع ويسمون الأبدال[٥].

---

(١) طبقات الشعراني: (٢/ ١٣٥)، ترجمة علي وحيش.

(٢) هذه هي الصوفية، عبدالرحمن الوكيل: (١٠٩).

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني : (٢/ ١٢٩)، ترجمة إبراهيم الريان

(٤) الأوتاد هم الرجال الأربعة الذين هم على منازل الجهات الأربع من العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب بهم يحفظ الله تعالى تلك الجهات لكونهم محل نظره تعالى، اصطلاحات الصوفية للكاشاني: (٥٨).

(٥) الأبدال جمع بدل إحدى المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية وهم يشاركون في حفظ نظام الكون، وترتيبهم كترتيب السماوات السبع بحيث يكون ارتباط البدل الأول بالسماء السابعة على قلب الخليل ـ عليه السلام ـ والثاني بالسماء السادسة على قلب موسى ـ عليه السلام ـ والثالث بالسماء =

وأربعين منهم مشغولون بحمل أثقال الخلق ويسمون النجباء[(١)].

وثلاثمائة مشرفون على بواطن الناس وخفايا الضمائر ويسمون النقباء[(٢)].

وفوق هؤلاء جميعاً القطب الأكبر أو الغوث الأعظم الذي يدير شأن الملك كله سمواته وأرضه»[(٣)].

وبعضهم يرى أن الولاية أفضل من النبوة ويلبسون على الناس فيقولون ولايته أفضل من نبوته وينشدون:

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي[(٤)]

= الخامسة على قلب هارون والرابع بالسماء الرابعة على قلب إدريس ـ عليه السلام ـ والخامس بالسماء الثالثة على قلب يوسف ـ عليه السلام ـ والسادس بالسماء الثانية على قلب عيسى ـ عليه السلام ـ والسابع بالسماء الأولى على قلب آدم ـ عليه السلام ـ، معجم ألفاظ الصوفية للدكتور الشرقاوي: (٢٢).

وهذه ضلالات وحماقات لا أساس لها ولا دليل عليها بل هي من إيحاءات الشياطين ووساوس الأبالسة نعوذ بالله من ذلك.

(١) النجباء: هم الأربعون القائمون بإصلاح أمور الناس وحمل أثقالهم المتصرفون في حقوق الخلق. اصطلاحات الصوفية للكاشاني: (١١٤). ومعلوم فساد هذا الكلام وبطلانه إذلايقوم بإصلاح أمور الخلق ويتصرف في الكون إلاَّالله وحده.

(٢) النقباء: هم الذين تحققوا باسم الباطن فأشرفوا على بواطن الناس واستخرجوا خفاياالضمائر وهم ثلاثمائة. اصطلاحات الصوفية للكاشاني: (١١٦). وهذا أيضًا كلام باطل لا أصل له، فالله وحده هو المطلع على الغيب العالم بما تكنه الصدور وتخفيه الضمائر.

(٣) انظر: الفكر الصوفي لعبدالرحمن عبدالخالق: (٣٤٦).

(٤) الفتاوى لابن تيمية: (١١/ ٢٢٦).

هذه هي الولاية عندالمتصوفة والتي لا تمت إلى الإسلام بصلة بل هي ضلالات وجهالات نقلت عن الفلسفات الأغريقية ونظرتها إلى الآلهة القديمة، وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تلك الجهالات وأبطل تلك الضلالات فقال:

«وكذلك كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدد الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب مثل أربعة أو سبعة أو اثني عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة أو ثلاثة عشر أو القطب الواحد فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلاَّ بلفظ الأبدال. وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً وأنهم بالشام وهو في السنن من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو حديث منقطع ليس بثابت»[١].

ومعلوم أن عليًّا ومن معه من الصحابة أفضل من معاوية[٢] ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي وقد أخرجا في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «**تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم**

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند: (١/ ١١٢)، وقد أعل بالانقطاع لأنه من رواية شريح بن عبيد الحضرمي الذي لم يدرك عليًّا و على هذا لا يصح الحديث.

(٢) معاوية بن أبي سفيان صاحب رسول الله ﷺ، وكاتب الوحي له، يعدُّ من دهاة العرب، أسلم عام الفتح، وشهد حنينًا واليمامة، ولاَّه عمرعلى الشام، وأقرَّه عثمان، وبعد مقتل عثمان طالب بالقصاص من قتلته، ولم يبايع عليًّا، فحصلت الفتنة، ولما قتل علي اجتمع عليه الناس فصار أميرًا للمؤمنين، مات سنة: (٦٠هـ)، الإصابة: (٦/ ١١٢).

أولى الطائفتين بالحق»[١].

وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة في خلافة علي فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق من معاوية وأصحابه فكيف يكون الأبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما»[٢].

---

(١) رواه البخاري ح: (٣٦١٠)، ومسلم ح: (١٠٦٤).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١١/١٦٧).

الكرامة عند أهل السنة وعند المتصوفة وعند المتكلمين

أولاً: الكرامة عند أهل السنة :

الكرامة في اللغة:

قال صاحب القاموس الكَرَمَ محركة ضد اللؤم وكرَّمه عظَّمه ونزَّهه(١).

وفي الاصطلاح: هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم»(٢).

وهي عامة وخاصة: فالعامة ما فضل الله به الإنسان على غيره من المخلوقات كاعتدال القامة والخلق في أحسن تقويم وتسخير كل ما في الكون له قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٣)

أما الخاصة فهي ما يكرم الله به بعض عباده وما يختصهم به من هدايتهم إلى الإيمان وتوفيقهم إلى طاعته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وهذا من أعظم الكرامات وأهلها هم أهل السعادة في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة يقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي: (١٤٨٩).

(٢) لوامع الأنوار للسفاريني: (٢/ ٣٩٢).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[١].

وأفضل منهم من يمن الله عليهم بزيادة الايمان واليقين وكثرة التقوى والورع ودقة المراقبة والخشية والاكثار من نوافل العبادات فهؤلاء في أعلى مراتب الولاية»[٢].

وأهل السنة والجماعة يرون إمكان وقوع الكرامة على أيدي بعض عباد الله الصالحين لكن وفق الضوابط التالية:

أولاً: أنها لا تقع إلاّ لمن جمع الله له بين الايمان والتقوى وذلك بتصديق ما أخبر الله به من الأمور المغيبة والالتزام بما أمر الله به من الفروض والواجبات والابتعاد عما نهى الله عنه من المحرمات وأنها لا تقع إلاّ ببركة اتباع رسول الله ﷺ والاقتداء بهديه ولحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«وليس لله وليٌّ إلاّ من اتبعه باطناً وظاهراً فصدقه فيما أخبر به من الغيوب والتزم بطاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات فمن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ملتزماً طاعته فيما أوجب وأمر به من الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمناً فضلاً عن أن يكون ولياً لله.

ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل فإنه لا يكون مع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من أداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتها وواجباتها إلاّ من أهل الأحوال الشيطانية

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية: ١٣، ١٤.

(٢) عقيدة المؤمن للجزائري: (١٧٥)، بتصرف يسير.

المبعدة لصاحبها عن الله المقربة إلى سخطه وعذابه»[١].

ويقول ـ رحمه الله ـ في موضع آخر ـ:

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما زجر عنه فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين وخيار أولياء الله تكون لحجة في الدين ولحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم محمد ﷺ كذلك»[٢].

ثانياً: أن الكرامة لا ترقى إلى درجة المعجزة التي يؤيد الله بها أنبياءه ورسله، فلقد جرت سنة الله عز وجل أن يؤيد كل رسول يبعثه إلى الناس بمعجزة خارقة للعادة وخارجة عن مألوف الناس كدليل على أنه رسول من عند الله، وحتى يحمل المعاندين والمكابرين على الإذعان والإيمان بما جاء به من هدى ورشاد.

وهذا شيء طبيعي فكما أنهم لا يبلغون إلى درجتهم في الفضل فكذلك لا يصلون بكراماتهم إلى درجة معجزاتهم. يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:

«آيات الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرّق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلاَّ لنوح ومن ركب معه في السفينة فهذا لم

(١) الفتاوى لابن تيمية: (١٠/ ٤٣١).

(٢) فتاوى ابن تيمية: (١١/ ٢٧٤).

يكن قط في العالم نظيره.

وكذلك إهلاك عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً حتى صاروا كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجَّا هوداً ومن اتبعه وهذا لم يوجد له نظير في العالم.

وكذلك قوم صالح وقوم لوط وقوم فرعون... إلخ»[١].

ويقول رحمه الله في مكان آخر:

«آيات الأنبياء التي دلت على نبوتهم هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم مثل الإتيان بالقرآن، ومثل الإخبار بأحوال الأنبياء المتقدمين وأممهم والإخبار بما يكون يوم القيامة وأشراط الساعة ومثل إخراج الناقة من الأرض، ومثل قلب العصا حية وشق البحر، ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثله لغيره»[٢].

ثالثاً: أن الكرامة ليست من شروط الولاية فقد يكون الإنسان ولياً لله ومن أحبهم إليه وأكثرهم طاعة له ولا تظهر على يديه كرامة قط، وحدوثها على يد شخص لا يدل على أنه أفضل ممن لم تحدث له كرامة؛ لأن شروط الولاية التي تضمنها قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ محصورة في شرطين فقط هما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. ولذا كانت

(١) النبوات لابن تيمية: (١٠٩).

(٢) النبوات لابن تيمية: (١١٦).

الكرامات في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أقل منها في العهود التي جاءت بعدهم مع كمال فضلهم وعلو منزلتهم عند الله حيث اختارهم الله لصحبة نبيه وإظهار دينه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة»[1].

رابعاً: أن الكرامة قد تمنح للمشتغلين بالذكر والفكر والمجاهدة مع قلة علمهم وجهل بعضهم أكثر مما تمنح للعلماء والمحققين من أهل السنة والجماعة مع كمال علمهم وتفضيل الله لهم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«لا ريب أن الذي أُوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أُوتوا الإيمان فقط، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة والعلم الممنوح الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ:

«فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره ولا يكون

(١) فتاوى ابن تيمية: (١١/ ٢٨٣).

مؤمناً بل يكون منافقاً فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان وأما الذي أُوتي العلم والإيمان فهو مؤمن عليم فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم. فهذا أصل يجب معرفته.

وههنا أصلٌ آخر وهو أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً ولا تصرفاً فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلاَّ كان من متاع الحياة الدنيا وقد يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة وأولئك أصحاب النار ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من قبل هذا وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسة ومال فأكرم الخلق عند الله أتقاهم ومن عبد الله بغير علم، فقد أفسد أكثر مما أصلح وإن حصل له كشف وتصرف وإن اقتدى به خلق كثير من العامة»[1].

بهذه الضوابط يثبت أهل السنة والجماعة الكرامات ويجوِّزون وقوعها ويستدلون على ذلك بما يلي:

أولاً القرآن الكريم:

١ـ قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٣٩٦/١١).

حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[١].

قال قتادة: «حدِّثنا أنه كانت تؤتى بفاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء فعجب من ذلك زكريا»[٢].

٢ـ قوله تعالى في قصة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[٣].

أخرج ابن أبي حاتم عن صخرة بن حبيب «أن سارة لما بشَّرها الرسل بإسحاق قال: بينما هي تمشي وتحدثهم حين أتت بالحيضة فحاضت قبل أن تحمل بإسحاق فكان من قولها للرسل حين بشروها: قد كنت شابة وكان إبراهيم شاباً فلم أحبل فحين كَبُرْتُ وكَبُرَ أألد؟! قالوا: أتعجبين من ذلك يا سارة فإن الله قد صنع بكم ما هو أعظم من ذلك إن الله قد جعل رحمته وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد»[٤].

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[٥].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) كرامات أولياء الله للالكائي: (١٩)، قال المحقق: سنده حسن.

(٣) سورة هود، الآية: ٧١، ٧٣.

(٤) الدر المنثور للسيوطي: (٤/ ٤٥٢).

(٥) سورة النمل، الآية: ٤٠.

قال سعيد بن جبير: «لما تكلم الذي عنده علم من الكتاب دخل العرش تحت الأرض فنظر إليه سليمان قد طلع بين يديه فقال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر»[١].

ثانياً من السنة المطهرة:

١ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**قد كان فيمن خلا من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فهو عمر بن الخطاب**»[٢].

٢ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما رجل بأرض فلاة فسمع صوتاً في سحابة: إسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فانتهى إلى الحرة فإذا هي أذناب بشراج فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء فتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال له: يا عبدالله ما اسمك قال: فلان، الاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبدالله لم سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: إسق حديقة فلان باسمك فما تصنع فيها قال: إن قلت هذا فإني أنظر إلى ما خرج منها فأتصدق بثلثه وآكل ثلثه وأرد فيها ثلثه»[٣].

٣ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلاَّ ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله عز

---

(١) كرامات الأولياء للالكائي: (٢٢) قال المحقق سنده صحيح.

(٢) رواه البخاري ح: (٣٦٨٩)، ومسلم ح: (٢٣٩٨).

(٣) رواه مسلم ح: (٢٩٨٤).

وجل؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبَّار ومعه سارة وكانت من أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم إنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي وإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم اليوم مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فآتاه فقال: لقد دخل أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلاَّ لك فأرسل إليها فأتى بها، وقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما أن دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها: سلي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فانطلقت يده فعاد فقبضت يده أشد من القبضة الأولى فقال لها: سلي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فانطلقت يده فدعا الذي جاء بها فقال له: إنك أنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فلما رآها إبراهيم قل لها مهيم قالت: خير كفَّ الله يد الفاجر وأخدمني هاجر»[١].

ثالثاً بما وقع لكثير من الصحابة من الأمور الخارقة للعادة:

١ـ تنزل الملائكة لاستماع قراءة أسيد بن حضير[٢]. ففي الصحيحين عن أسيد بن حضير ـ رضي الله عنه ـ قال: «بينما هو يقرأ من

---

(١) رواه البخاري ح: (٣٣٥٨)، ومسلم ح: (٢٣٧١).

(٢) أسيد بن حضير بن سماك الأنصاري: من السابقين إلى الإسلام وأحد النقباء ليلة العقبة، اختلف في شهوده بدرًا لكنه شهد أحدًا وما بعدها آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة وكان من أحسن الناس صوتًا بتلاوة القرآن: الإصابة لابن حجر: (١/٤٨).

الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه فلما اجترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال له: اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير. قال: فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً. فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها. قال: وتدري ما ذاك قال: لا. قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصْبَحَتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»[١].

٢ـ تكثير الطعام الذي قدَّمه أبوبكر الصديق لأضيافه. ففي الصحيحين عن عبدالرحمن بن أبي بكر: أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وأن النبي ﷺ قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث وإن أربع فخامس، أو سادس وأن أبابكر جاء بثلاثة فانطلق النبي ﷺ بعشرة قال: فهو أنا وأبي وأمي فلا أدري قال وامرأتي وخادم بيننا وبين بيت أبي بكر وإن أبابكر تعشى عند النبي ﷺ ثم لبث حيث صُلِّيَتْ العشاء ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله قالت له امرأته وما حبسك عن أضيافك أو قالت: ضيفك. قال: أوما عشيتيهم. قالت: أبَوا حتى تجيء قد عُرِضُوا فأبَوا. قال: فذهبت أنا فاختبأت فقال: يا غنثر فجدَّع وسبَّ فقال: كلوا لا هنيئاً فقال: والله لا أطعمه أبداً

(١) رواه البخاري ح: (٥٠١٨)، ومسلم ح: (٧٩٦).

وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلاَّ ربا من أسفلها أكثر منها قال: يعني حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك فنظر إليها أبوبكر فإذا هي كما هي أو أكثر منها فقال لامرأته: ياأخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات فأكل منها أبوبكر وقال: إنما ذلك من الشيطان ـ يعني يمينه ـ ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل ففرقنا اثنا عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل فأكلوا منها أجمعون أو كما قال»[١].

٣ـ قصة خُبيب بن عدي[٢] وما جرى له مع القُرَّاء الستة ثم وقوعه في الأسر وما حدث له من الكرامة حيث وجدوه يأكل عنباً، وما في مكة من ثمر»[٣].

رابعاً بما وقع لبعض التابعين ـ رحمهم الله ـ:

١ـ ما حدث لصلة بن أشيم العدوي[٤] عندما جاءه الأسد وهو قائم

---

(١) رواه البخاري ح: (٦٠٢)، ومسلم ح: (٢٠٥٧).

(٢) خُبيب بن عدي بن مالك الأنصاري: شهد بدرًا وقتل شهيدًا حين غدر به المشركون فقتله بنو الحارث وهو أول من سنَّ صلاة ركعتين عند مقتله وله قصيدة قالها عندما أرادوا قتله منها:

ولست أُبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

الإصابة: (٢/ ١٠٣).

(٣) انظر: القصة بكاملها في صحيح البخاري ح: (٣٠٤٥).

(٤) صلة بن أشيم العدوي: تابعي مشهور بالزهد والعبادة كان يصلي بالليل حتى ما يستطيع أن يأتي فراشه إلاَّ زحفًا، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٩٧).

يصلي بالليل فقال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير[١].

٢ـ إصابة عبدالواحد بن زيد بالفالج وسؤال الله عز وجل أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكانت أعضاؤه تطلق له وقت الوضوء ثم تعود بعده[٢].

٣ـ تسبيح آنية مطرف بن عبدالله بن الشخير[٣] كلما دخل إلى بيته[٤].

---

(١) انظر: القصة في صفة الصفوة لابن الجوزي: (٣/ ١١٥)

(٢) انظر: القصة كاملة في الحلية لأبي نعيم: (٦/ ١٥٥).

(٣) مطرف بن عبدالله بن الشخير تابعي مشهور ولد في عهد النبي ﷺ وكان خير عباد البصرة وزهادهم له مناقب كثيرة قال ابن سعد: كان ثقة له فضل وورع وعقل وأدب. الإصابة: (٦/ ١٥٨).

(٤) انظر: القصة في الحلية لأبي نعيم: (٢/ ٢٠٥).

ثانيًا : الكرامة عند المتصوفة :

تحتل الكرامات مساحة كبيرة من اهتمامات المتصوفة وكتبهم مملوءة بالغرائب والعجائب من أخبارها والكثير منها يرده الشرع ويرفضه العقل وقد ذهبوا إلى ذلك كمتعلق وحيد ومستمسك واه لهم إذ ليس لديهم علم أصيل يبرزونه أو عمل صالح يظهرونه أو جهاد أو دعوة يثبتونها فجاء تركيزهم على الكرامات وبالغوا في إثباتها ثم تجاوزوا الحدود إلى نسج الأساطير واختلاق الحكايات وتناقل الخرافات ليرسخوا في أذهان عوام الناس مبدأ اللجوء إلى الأولياء والاستغاثة بهم بزعم أنهم أصحاب كرامة ولهم عند الله المنازل الرفيعة والدرجات العالية.

وقد انقسم الناس إزاء هذه الكرامات إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: غلت في رفض تلك الكرامات وتعصبت كثيراً في إنكارها حتى وصل بها الأمر إلى الطعن في أشخاص أصحابها، ولعلَّ الذي دفعهم إلى هذا الموقف ما نقل من الكرامات الكاذبة والروايات الساقطة فاشتد نكيرهم لردها وإبطالها.

وهذا الموقف من هذه الفئة فيه نظر وذلك لما فيه من الظلم والتجني ومجانبة الحق واتباع الهوى، فقد علمنا فيما تقدم أن الكرامات مما يجوز وقوعه بالضوابط الشرعية.

الفئة الثانية: تعصبت لأصحاب الكرامات وقبلت كل ما أُثِرَ عنهم أو نُسب إليهم من خوارق العادات من غير تمحيص ولا تدقيق أو نظر أو تأمل، مما يرده الشرع وينكره العقل.

وأشهر من جمع تلك الخوراق والطوام: عبدالوهاب الشعراني

في كتابه «الطبقات الكبرى».

الفئة الثالثة: من يميل إلى الوسطية والاعتدال، فيقبلون من الكرامات ما صح وثبت نقله مما لا يتعارض مع الشرع، ويردون ماعدا ذلك، وما يمكن قبوله فهو من باب الفراسة التي قال ابن القيم رحمه الله: «أن حقيقتها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده على حسب الإيمان من كان أقوى إيماناً فهو أحد فراسة وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، وكان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطىء ويقول: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطىء فراسته» مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢).

وقد نقل رحمه الله مواقف كثيرة شاهدها بنفسه من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بالغ فيها عفا الله عنه لفرط محبته وغلوه في شيخه حتى ذكر أنه كان يخبره بأشياء باطنة تختص به مما عزم عليه ولم ينطق بها لسانه وكان يخبره بحوادث كبيرة تجري في المستقبل، وقد وقع بعضها وهذا من الغلو والمبالغة المفرطة فإن مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ الله وحده.

هذا ما أردت إيضاحه مع الإيجاز وإلاَّ فموضوع الكرامات وتتبعها بالنقد والتمحيص والحكم عليها بالقبول أو الرد مطلب لا يتسع له موضوع هذه الكتاب ولا يتعلق لي به غرض والله أعلم.

ثالثًا: الكرامة عند المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة :

١ ـ عند الأشاعرة :

يتفق الأشاعرة مع أهل السنة والجماعة في إثبات جواز وقوع الكرامة ولكن بدون ضوابط أو حدود فلا يفرقون بين ما يقع من خوارق العادات للأنبياء وبين ما يقع للأولياء أو السحرة ولا فرق عندهم بينها إلاَّ دعوى النبوة من قبل الأنبياء وظهور علامات الصلاح والتقوى من قبل الأولياء.

يقول الجويني: «والمرضي عندنا تجويز خوارق العوائد في معارض الكرامات ثم لا يفرق بين الكرامة والمعجزة إلاَّ بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة»[(١)].

ويقول البغدادي: «اعلم أن المعجزات والكرامات متساوية في كونها ناقضة للعادات».

إلاَّ أنه يجعل الفرق بينهما من ثلاثة أوجه:

الأول: تسمية ما يدل على صدق الأنبياء معجزة وما يظهر على الأولياء كرامة.

الثاني: أن صاحب المعجزة يظهرها لإثبات صدقه لكن صاحب الكرامة يجتهد في إخفائها.

الثالث: أن صاحب المعجزة معصوم من الكفر بعد ظهور معجزته أما صاحب الكرامة فلا يؤمن تَبَدُّلْ حاله كما حدث لبلعام بن باعوراء[(٢)].

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني: (٢٦٧).

(٢) أصول الدين للبغدادي بتصرف يسير: (١٧٤).

ولا شك أن أصحاب هذا القول قد جانبوا الصواب وأن التسوية بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء غير وارد لأن المعجزات التي يؤيد الله بها أنبيائه إنما كانت لإثبات نبوتهم وبالتالي حصول القناعة لدى أممهم بأنهم رسل من عند الله فيترتب على ذلك دخولهم في دين الله وحصولهم على السعادة في الدنيا والفوز بالجنة والنجاة من النار في الدار الآخرة.

أما الكرامة التي تظهر على أيدي بعض عباد الله الصالحين فإنما تقع لحاجتهم إليها أو للدلالة على فضلهم وقربهم من الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم ولكن قد يشاركونهم في بعض أعمالهم»[١].

٢ ـ المعتزلة:

المعتزلة يمنعون وقوع الكرامات أو خوارق العادات لغير الأنبياء وذلك انطلاقاً من أصلهم في رد الأمور التي لا تصدقها عقولهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فقالت طائفة لا تخرق العادة إلاَّ لنبي وكذَّبوا بما يذكر من

(١) النبوات لابن تيمية: (٤).

خوارق السحرة والكهان وبكرامات الصالحين وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم»[١].

ولا شك في عدم صحة قولهم بعد ثبوت الكرامات بأدلة الكتاب والسنة وتواتر الوقائع والحوادث بها كما سبق أن أوضحناه عند إيراد مذهب أهل السنة والجماعة في الكرامات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«لكن هؤلاء ـ يعني المعتزلة ـ كذَّبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء والمنازع لهم بقول هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء فكيف يكذبون بما شهدوه ويصدقون بما غاب عنهم ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره»[٢].

وبهذا التفصيل يزول اللبس والغموض ويتضح ما يكون كرامة من عند الله لبعض أوليائه وعباده الصالحين وما يكون إيحاءاً من الشياطين وتلاعباً من الأبالسة ممن سوَّلت لهم الشياطين وأملت لهم وزينت لهم سوء أعمالهم. ونعوذ بالله من ذلك.

---

(١) النبوات لابن تيمية: (٢).
(٢) النبوات لابن تيمية: (٢).

الباب الثاني عشر
أشهر الطوائف والفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: **الخوارج**

المبحث الثاني: **الشيعة**

المبحث الثالث: **المعتزلة**

المبحث الرابع: **الأشاعرة**



الفرق العقائدية في الإسلام
مدخل تاريخي

منذ بزوغ فجر الإسلام ونزول الوحي على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه كان من أولويات الدعوة إلى الله إلى جانب عقيدة التوحيد وقضايا الإيمان كان هناك تركيزًا كبيرًا ودعوة أكيدة إلى المحبة والتكالف والوحدة والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والتنازع والاختلاف فيما تضمنته الآيات الكريمة والتوجيهات الربانية في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(١) وقوله عزَّوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢) وفي مثل قوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٣)

وحين استجابت الأمة في عهدها الأول لهذه التعاليم استقام أمرها وصلح حالها ومكَّن الله لهافي الأرض ودخل الناس في دين الله أفواجًا ينعمون بالأمن والإيمان في ظل دوحته الوارفة وتعاليمه العظيمة وإذاحصل خلاف أو وقع نزاع قُضي عليه في عهده بالرجوع إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٤) وعندما يجدون الأمر واضحًا في الكتاب

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٣) رواه البخاري ح: (٧٠٧٧)، ومسلم ح: (٦٥).

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.

والسنة يرضخون ويسلمون ولا يرون ذلك إلاَّ دليلاً على صدق إيمانهم، وقوة يقينهم مدركين قول الله عزَّوجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[١] وهكذا ظلت الأمة ردحًا من الزمن معتصمة بالله منفذة لأوامره مسترشدة بهدي نبيها صلوات الله وسلامه عليه إلى أن توفي بأبي هو وأمي إذ بدأت بوفاته بذرة الخلاف حول الخلافة بين المهاجرين والأنصار حين كان الأنصار يرون أنهم أولى بالخلافة بينما يرى المهاجرون أنهم أولى بها.

ولكن هذا الخلاف ما لبث أن قضى عليه في مهده لحداثة عهد الأمة بنبيها وقربها الزماني والمكاني من تعاليمه فاختارت الأمة أبابكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خليفة لرسول الله ﷺ واستمر الأمر في عهده وعهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ والخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ، إلاَّ أنه وبعد مقتل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بدأت الفتن في إخراج أعناقها حين بادر بعض الصحابة إلى بيعة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وتوليته أمر المسلمين بينما يرى بعضهم الآخر أنَّ عثمان قد قتل مظلومًا وأنه يجب القصاص من قاتليه[٢]

وهكذا اختلفت وجهات النظر ودب الخلاف بينهم رغم إيضاح علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وبيانه أنه لن يترك قتلة عثمان

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري: (٣).

ولكنه كان يرى أنَّ الأهم هو جمع كلمة المسلمين أولاً ثم المقاضاة والقصاص من القتلة ثانيًا إذ أنَّ الحدود لا تقام إلاَّ في ظل الأمن والنظام لا في ظل الفرقة والإنقسام

وقد كادوا يقتنعون برأيه ويستجيبون لدعوته لولا تحرك عناصر الفتنة وإشغالهم نار الحرب التي أدت إلى وقوع معركة الجمل وسقوط أكثر من عشرة آلاف قتيل[١] ثم معركة صفين ثم حادثة التحكيم وظهور الخوارج ووقوع الحرب بينهم وبين علي ـ رضي الله عنه ـ والتي انتهت بقتله غيلة وظهور فرقة الشيعة التي ادَّعت التعاطف مع علي وآل بيته، ونادت بحقه وحق أولاده في الخلافة كرد فعل لموقف الخوارج وبني أمية ووجدت هذه الدعوة أعني التشيع مناخًا مناسبًا في الوسط المضطرب كما وجدت جذورًا مناسبة من دعوات وصيحات مغرضة كانت تطلق هنا وهناك منذ وفاة النبي ﷺ من أنَّ علي بن أبي طالب كان هو الأولى بالخلافة بالإضافة إلى اجتهاد أعداء الإسلام والمتربصين به وحرصهم على النيل منه، فوجدوا الفرصة سانحة للانتقام منه بركوب هذه الموجه فاجتهدوا في زرع الفتنة بتزعم اليهودي اللعين عبدالله بن سبأ الذي بث عقيدة التشيع والمناصرة لأهل البيت والطعن في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ والقول برجعة علي ـ رضي الله عنه ـ إلى الدنيا إلى غير ذلك من العقائد الباطلة التي نادى بها متأثرًا بيهوديته وحقده الدفين على الإسلام والمسلمين.

وقد اعتمدوا في نشر باطلهم على تأويل الآيات القرآنية

---

(١) انظر: الفتنة وموقعة الجمل: أحمد راتب عرموش: (١٤٧).

وصرفها عن مقاصدها ومدلولاتها واختلاق الأكاذيب في سبب نزولها، كما اعتمدوا على الأحاديث الموضوعة التي وضعوها لدعم باطلهم وعلى بعض الأحاديث التي وردت لتفيد فضيلة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كغيره من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أصحاب الفضل والسابقة ولكنهم جعلوها أدلة تدل على إمامته لا على فضله حتى انتهوا إلى المناداة برفض ولاية أبي بكر الصديق وعمر واتهامهما بالظلم والاعتداء على حق علي ـ رضي الله عنه ـ في الخلافة ثم تطور هذا الاتجاه إلى تكفيرهما وتكفير جميع الصحابة الذين بايعوهما، وهكذا نجد أنَّ أول من فارق جماعة المسلمين هم الخوارج الذين سموا بالناصبة لمناصيتهم عليًا ـ رضي اللهعنه ـ العداء ثم ظهرت الرافضة كردة فعل وسموا بالشيعة لمناصرتهم عليًا ومشايعتهم له.

ثم ظهرت بعد ذلك مسألة القدر التي نادى بها معبد الجهني والتي تطورت حتى أصبحت فرقة من الفرق الكبيرة وقد تحدثنا عنها عند الكلام على الإيمان بالقضاء والقدر، وبعد ذلك ظهرت المرجئة ثم المعطلة والجهمية ثم المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وسوف أتحدث عن هذه الفرق بشيء من الإيجاز وذلك رغبة في كشف باطلها وللتحذير من الوقوع في شباكها أو الاغترار ببعض أوجه الصحة فيها فإنَّ الباطل لايقبله الناس إلاَّ إذا اختفى في ظلال الحق، ورغم أنَّ بعض هذه الفرق قد اندثرت وانتهت ولم يَعُدْ لها وجود في الساحة الإسلامية إلاَّ أنَّ أفكارها لا تزال تتجدد وتلبس ثيابًا أخرى وتتسمى بمسميات جديدة لكنها في الحقيقة إنما تدعو إلى تلك

الأفكار كما أنَّ بعض هذه الفرق لا يزال يتوسع وينتشر. وحتى يكون المسلم على بينة من أمره فإنَّ معرفه الباطل من عوامل الوقاية منه وصدق الله القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾[1] وسأتحدث عن أبرز تلك الفرق وهي:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

المبحث الأول
الخـوارج

أطلق هذا المسمى أولاً على النفر الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد قبوله التحكيم عقب معركة صفين حيث اعتبروا قبوله خطيئة تؤدي إلى الكفر ومن ثم طلبوا من علي بن أبي طالب أن يعترف بالكفر ثم يتوب منه، وقد سموا أيضًا بالحرورية لانحيازهم إلى قرية بالقرب من الكوفة يقال لها حروراء، ثم أطلق هذا المسمى على كل من تبني أفكارهم واقتنع بمبادئهم ونادى بشعاراتهم، وقد ظهر بعض أفرادهم في عهد النبي ﷺ ووردت بعض الأحاديث التي توضح أوصافهم وتفيد الأمر بقتالهم .

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيدالخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع أما علقمة بن علاثة، وإما عامر بن الطفيل فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**» قال: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يارسول الله اتق الله فقال: «**ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**» قال: ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد: يارسول الله ألا أضرب عنقه، فقال: لعله أن يكون يصلي،

فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «**أني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**» قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ وقال: «**إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لايجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» قال: أظنه قال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[1].

وقد ذكرت بعض المصادر أنَّ هذا الرجل هو ذو الخويصرة ويدعي حرقوص بن زهير السعدي، وكان أحد الرؤوس التي دبرت الفتنة وشاركت في المؤامرة ضد الخليفة عثمان حيث كان على رأس ثوار البصرة ثم كان على رأس الذين انشقوا على علي ـ رضي الله عنه ـ.

إلاَّ أنهم لم يظهروا كجماعة إلاَّ بعد التحكيم حين فارقوا الجماعة وانحازوا إلى حروراء وعينوا شبث بن ربعي التميمي ليكون أميرًا لهم، مما اضطر الخليفة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى قتالهم بعد أن أقام الحجة عليهم بإرسال الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في محاولة لإقناعهم بالرجوع إلى الحق والعودة إلى الجماعة وعدم إثارة الفتنة وحين ناظرهم وردَّ على شبهاتهم عادت منهم طائفة كبيرة مما أطمع علي ـ رضي الله عنه ـ في إصلاحهم فخرج بنفسه إلى البقية الباقية منهم وذكَّرهم بأنهم هم الذين حملوه على قبول التحكيم ولكنهم رفعوا شعارهم بأنه: «لاحكم إلاَّ لله» فلما سمع ذلك قال: «كلمة حق أريد بها باطل»،

---

(١) رواه البخاري ح: (٣٣٤٤)، ومسلم ح: (١٠٦٤).

وعندما قاموا باستحلال دماء المسلمين وأموالهم وبعد أن أقدموا على قتل عبدالله بن خباب بن الأرت على شفير النهر وبقروا بطن أم ولده وأخذوا يقطعون الطرق ويعتدون على الناس، عندها لم يجد بدًّا من قتالهم في معركة النهروان التي أبيدوا فيها ولم ينج منهم إلاَّ القليل، غير أنَّ من بقي منهم عمل على إذكاء روح القتال والعنف الذي أدَّى إلى التخطيط لعملية اغتيال علي بن أبي طالب، ثم ظهور الفرق العديدة منهم وهم المحكمة الأولى، والأزارقة والنجدات، والصفرية، والعجاردة والإباضية، والثعالبة.

أما الأصول والمبادىء التي ينادون بها ويلتقون عليها فيمكن حصرها فيما يلي:

١ ـ تكفير صاحب الكبيرة بناءًا على سوء فهمهم للقرآن، حيث فهموا منه مالم يدل عليه وأنزلوا الآيات التي نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين وتمسكوا بظواهر النصوص من غير اعتبار للآيات الأخرى التي تصف مرتكب الكبيرة بأنه مؤمن ومن غير اعتبار لعمل الرسول ﷺ وسنته التي تفسر القرآن وتوضحه، ولذا فقد اجتهد علي بن أبي طالب في إيضاح خطأ هذا المنهج وبيَّن لهم أنَّ فعل المعصية لا يقتضي الكفر على الإطلاق فإنَّ الرسول ﷺ أقام الحدود على الزاني والزانية، وأخبر أنهما ينغمسان في الجنة ولكن الخوارج كما يقول ابن حزم: «كانوا أعرابًا قرأوا القرآن ولم يتفقهوا في السنة ولذا نجدهم يكفر بعضهم بعضًا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها»[1].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم: (٤/١٥٦).

٢ـ وجوب الخروج على الأئمة إذا وقعوا في معصية باعتبارهم كفارًا انطلاقًا من تكفيرهم مرتكب الكبيرة.

٣ـ إنكارهم الشفاعة بناءً على أنَّ صاحب المعصية كافر وبالتالي لا تنفعه الشفاعة وهكذا يؤدي الوقوع في خطأ واحد في العقيدة إلى تسلسل الوقوع في أخطاء أخرى يستلزمها ذلك الخطأ.

٤ـ تكفير من رضي بالتحكيم وتكفير بعض الصحابة كعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وعائشة ـ رضي الله عنها ـ

لكن هذه المباديء لم تقف عند هذا الحد ولكنهم ساروا وراء الأهواء وتأثروا بكلام الجهمية حتى قالوا بخلق القرآن وإنكار رؤية الله عزَّوجل في الآخرة وانكار صفات الباريء سبحانه خصوصًا فرقة الإباضية التي لا تزال موجودة في بعض بلاد المسلمين، غيرأنَّ هناك جماعات ظهرت في العصر الحاضر تتبنى أفكار الخوارج وتعتنق مبادئهم ومن أشهرها: «جماعة التكفير والهجرة» التي ظهرت بمصر، والتي أطلقت حكم التكفير على الحكام لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله من غير تفصيل وعلى المحكومين، لأنهم رضوا بذلك، وعلى العلماء لأنهم لم يكفروا أولئك كما أنهم يكفرون كل من لم ينضم إلى جماعتهم أما من انضم إليهم ثم تركهم فهو مرتد حلال الدم»[١].

---

(١) انظر: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين: د/أحمد جلي: (٥١) وما بعدها والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: (٣٣٨).

المبحث الثاني
الشيعة

هذه الفرقة ظهرت كردة فعل لموقف الخوارج من علي بن أبي طالب حيث كفروه وحاربوه ثم اغتالوه ـ رضي الله عنه ـ مما كان له أكبر الأثر في ظهور هذه الفرقة التي شايعته وناصرته وأهل بيته ثم تطورت هذه المناصرة إلى القول بإمامته والطعن في خلافة أبي بكر الصديق وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ

ويطلق عليهم الإمامية، لأنَّ الإمامة هي أبرز قضاياهم وسمُّوا بالإثني عشرية لأنهم يقولون بإمامة إثني عشر إمامًا من أهل البيت هم:

١ـ علي بن أبي طالب الملقب عندهم بالمرتضى.

٢ـ الحسن بن علي الملقب بالمجتبى.

٣ـ الحسين بن علي الملقب بالشهيد.

٤ـ علي زين العابدين بن الحسين الملقب بالسجاد.

٥ـ محمد الباقر بن علي زين العابدين الملقب بالباقر.

٦ـ جعفر الصادق بن محمد الباقر الملقب بالصادق.

٧ـ موسى الكاظم بن جعفر الملقب بالكاظم.

٨ـ علي الرضا بن موسى الكاظم الملقب بالرضا.

٩ـ محمد الجواد بن علي الرضا الملقب بالتقى.

١٠ـ علي الهادي بن محمد الجواد الملقب بالنقي.

١١ـ الحسن العسكري بن علي الهادي الملقب بالزكي.

١٢ـ محمد المهدي بن الحسن العسكري الملقب بالحجة القائم المنتظر.

ويزعمون أنَّ محمد المهدي قد دخل سردابًا بسامراء وأنه سيخرج وهم ينتظرون خروجه حتى هذه الساعة.

أما أبرز أصولهم ومعتقداتهم فهي كالتالي:

١ـ الإمامة: وهم قضيتهم الكبرى والتي تحتل جزءًا كبيرًا من اهتماماتهم ويرون أنها لاتكون إلاَّ بالنص الجلي وأنه لايمكن أن يفارق النبي ﷺ الحياة دون أن يعين إمامًا يرجع إليه الناس، وأنَّ النبي ﷺ قد نصَّ على إمامة علي بن أبي طالب نصًّا ظاهرًا جليًّا، وأنَّ عليًّا ـ رضي الله عنه ـ قد نصَّ على الحسن والحسين وأنَّ كل إمام يعين الإمام الذي يليه بوصية منه.

٢ـ العصمة: أي إنَّ الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان وعن اقتراف الكبائر والصغائر.

٣ـ العلم اللدني ويعني ذلك أنَّ كل إمام قد أودع العلم من لدن النبي ﷺ.

٤ـ الغيبة أي أنَّ الزمان لا يخلو من حجة لله عقلاً وشرعًا وأنَّ الإمام الثاني عشر قد غاب في سردابه.

٥ـ الرجعة: حيث يعتقدون أنَّ الإمام الثاني عشر سيعودآخر الزمان عندما يأذن له الله بالخروج ولذا فإنهم يقفون بعد صلاة المغرب على باب السرداب وقد أعدوا مركبًا ثم يهتفون باسمه ويدعونه إلى الخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينصرفون على أن يعودوا في الليلة التالية.

٦ـ التقية وهي من أصول دينهم وتركها كترك الصلاة بل يرون وجوبها إلى أن يخرج الإمام القائم وينسبون إلى الإمام محمد الباقر قوله: «التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له» ومعناها إظهار خلاف ما يبطن الإنسان.

٧ـ يعتقدون أنَّ لديهم مصحفًا يسمونه مصحف فاطمة غير القرآن الذي يقرؤه المسلمون يقول الكليني في كتابه الكافي صفحة: ٥٧، طبعة: ١٢٧٨ هجرية عن أبي بصير أبي جعفر الصادق قال: «وإنَّ عندنا لمصحف فاطمة ـ عليها السلام ـ قال: قلت وما مصحف فاطمة قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه حرف واحد من قرآنكم».

٨ـ البراءة من الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان وسبهم ونعتهم بأقبح الصفات زاعمين أنهم اغتصبوا الخلافة من علي بن أبي طالب، وينالون من كثير من الصحابة ويسبون أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

٩ـ الغلو في علي بن أبي طالب حتى رفعه بعضهم إلى مرتبة الألوهية كالسبئية وبعضهم قالوا: إنَّ جبريل قد أخطأ في الرسالة فنزل بها على محمد بدلاً من علي لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب وهم الغرابية.

١٠ـ إقامة العزاء والنياحة والجزع وضرب الصدور في يوم عاشوراء معتقدين أنَّ ذلك قربة إلى الله وأنه يكفر سيئاتهم»[١].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: (٥٥) بتصرف.

المبحث الثالث

المعتزلة

فرقة نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي وقد اعتمدت في فهم العقيدة على العقل المجرد لتأثرها بالفلسفة اليونانية والهندية، التي تقدس العقل، الأمر الذي آل بهم إلى انحراف عن عقيدة أهل السنة والجماعة التي تعتمد في استدلالها على الدليل الشرعي من الكتاب والسنة وذلك لقصور العقل البشري وعجزه عن إدراك حقائق الأشياء والإحاطة بتفسير جميع الأمور:

وسبب تسميتها في أظهر التعليلات اعتزال واصل بن عطاء رأس المعتزلة لحلقة شيخه الحسن البصري، بعد قوله بأنَّ صاحب الكبيرة ليس كافرًا ولا مؤمنًا بل هو في منزلة بين المنزلتين فقال الحسن: اعتزلنا واصل، وقد برزت المعتزلة كفرقة فكرية في عهد المأمون الخليفة العباسي حيث أخذت على يديه بعدًا سياسيًا بعد اقتناعه ببعض أفكارها عن طريق بشر المريسي، وأحمد بن أبي دؤاد خصوصًا القول بخلق القرآن، إلاَّ أنَّ الخليفة المتوكل انتصر لأهل السنة وقضى على المعتزلة في عهده وكاد أن ينتهي هذا الفكر من الوجود غير أنه عاد إلى الظهور في العصر الحديث بعد أن عفى عليه الزمن على يد بعض الكتاب والمفكرين وأطلقوا عليه أسماء جديدة كالعقلانية والتنوير والتجديد، وقد قوَّى هذه النزعة التأثر بالفكر الغربي المادي حيث لجؤوا إلى إخضاع النصوص الشرعية للعقل

البشري فما وافقه منها قبلوه وما عارضه فإن كان قرآنًا أولوه وإن كان حديثا أبطلوه وردوه مهما كانت درجة صحته ومعنى هذا تأليه العقل ومنحه صلاحية أكثر مما يحتمله رغم أنَّ للاجتهاد مجاله، وللعقل إمكانيته في البحث والتعليل والابتكار، ولكن في حدود النصوص الشرعية الثابتة ولو انساق الناس وراء أهوائهم وما تمليه عليهم عقولهم القاصرة فسيؤدي ذلك إلى نقض عرى الإسلام وضياع معالمه كما حصل للرسالات السابقة التي حرفت وبدلت بسبب اتباع الأهواء والآراء وتقديمها على النصوص الثابتة.

أما أصول المعتزلة فهي خمسة كالتالي:

١ـ التوحيد ومعناه عندهم نفي الصفات واستحالة رؤية الله عزَّوجل.

٢ـ العدل ويعني في نظرهم أنَّ الله لايخلق أفعال العباد وأنَّ العباد هم الذين يخلقون أفعالهم ولا علاقة لله عزَّوجل بأفعالهم وذلك لخلطهم بين إرادة الله الكونية القدرية وإرادته الدينية الشرعية.

٣ـ الوعد والوعيد أي أنَّ الله يجزي المحسن إحسانًا والمسيء إساءة ولا يغفر لمرتكب الكبيرة في الآخرة وأنه خالد مخلد في النار.

٤ـ المنزلة بين المنزلتين بمعنى أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وإنماهو في منزلة بينهما.

٥ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعناه وجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق بدون تفصيل ولا ضوابط، وقد أدى اعتمادهم الكلي على العقل إلى الوقوع في كثير من الضلالات فنفوا الصفات، وطعنوا في أكابر الصحابة، وحتى لا يتوهم أحد أنَّ الإسلام يتجاهل العقل أو يحجر عليه.

فقد حدد العلماء مجال استخدامه بعدد من الضوابط منها:

أ ـ ألا يتعارض مع النصوص الثابتة من الكتاب والسنة

ب ـ ألا يستخدم العقل في المسائل الغيبية التي لايمكن معرفتها إلاَّ بالوحي

ج ـ أنَّ النقل الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع العقل الصريح وفي حالة توهم التعارض فإنه ينبغي تقديم النقل وإتهام العقل، لأنَّ العقول تتغير وتتأثر بالمؤثرات، وهكذا يتبين أنه لابد من تكامل العقل والنقل في فهم النصوص الشرعية(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: (٧٥) بتصرف.

المبحث الرابع
الأشاعـرة

من الفرق الكلامية التي اتخذت البراهين والدلائل العقلية الكلامية في مقارعة خصومها لإثبات حقائق الدين، وتنسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي مرَّ في حياته الفكرية بثلاث مراحل:

الأولى: التلقي لمذهب المعتزلة عن خاله أبوعلي الجبائي حتى أصبح من رؤوس الاعتزال.

الثانية: رفض مذهب المعتزلة والبراءة منه، والبدء في تأسيس منهج الأشاعرة وذلك بإثبات سبع صفات فقط وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وتأويل جميع الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق، وهذه هي المرحلة التي لايزال الأشاعرة عليها حتى الآن مع بعض الزيادات في الأفكار والمباديء على ضوء ما سنذكره بعد قليل.

الثالثة: اتباع منهج السلف واعلان البراءة عن كل ما يتعارض معه وتأليف كتابه: «الإبانة عن أصول الديانة» الذي ضمنه عقيدة أهل السنة والجماعة.

وبعد رفض الإمام الأشعري لمذهبه قام أئمة هذه الفرقة بوضع أصوله ومبادئه التي أخذت أكثر من طور وتعددت فيه الاجتهادات وتذبذبت فيه المواقف.

أما أهم أفكارهم وأصولهم فهي:

١ـ مصدر التلقي عندهم الكتاب والسنة لكن لاعلى منهج وفهم السلف الصالح ولكن على قواعد علم الكلام، ولذلك يقدمون

العقل على النقل عند التعارض .

٢ـ عدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، لأنها في زعمهم لا تفيد العلم اليقيني وهذا مخالف لمنهج السلف وإضاعة لأحكام وعقائد الإسلام فقد كان النبي ﷺ يرسل الرسل فرادى لتبليغ دين الله كإرساله معاذًا إلى اليمن وغيره.

٣ـ مخالفتهم لمذهب السلف في إثبات وجود الباري سبحانه حيث وافقوا الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال على وجود الله بقولهم: إنَّ الكون حادث ولا بد له من محدث قديم وأخص صفات القديم مخالفته للحوادث إلى آخر ما نسجوه من الأباطيل التي ترتب عليها إنكار بعض الصفات وغير ذلك.

٤ـ التوحيد عندهم هو إثبات الربوبية فقط والإله في نظرهم هو الخالق أو القادر على الاختراع وهذا باطل لأنَّ التوحيد يشمل توحيدالله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

٥ـ يرون أنَّ أول واجب على الإنسان عند بلوغ سن التكليف هو النظر ثم الإيمان بينما يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ أول واجب هو عبادة الله وحده لا شريك له.

٦ـ تأويل الصفات الذاتية «كالوجه واليدين والعين واليمين والقدم والأصابع» وبعضهم ذهب إلى تفويض معانيها وهذا باطل والحق هو إثبات كل ما أثبته الله وأثبته رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على ما وردت به النصوص من غير تأويل ولا تعطيل أو تشبيه أو تمثيل مع قطع النظر عن إدراك الكيفية[١] .

---

(١) الموسوعة الميسرة للمذاهب المعاصرة: (٨٧)، بتصرف.



الباب الثالث عشر
أشهر الديانات المخالفة للإسلام

وفيه مباحث:

المبحث الأول: **اليهودية**

المبحث الثاني: **النصرانية**

المبحث الثالث: **الهندوسية**

المبحث الرابع: **البوذية**



«مدخل تاريخي»

سبق أن تحدثت في المبحث السادس من الباب التاسع المتعلق بالإيمان بالرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأوضحت أنَّ دين الإسلام هو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ كما بُعث به جميع الرسل، وأنَّ الله لايقبل من العباد دينًا غيره، وقد جاءت رسالة محمد ﷺ ناسخة لجميع الرسالات السابقة، لكن المسلم مطالب بالاعتراف بتلك الرسالات وبكتبها المنزلة، كما أنزلت لا كما آلت إليه بعد أن لحقها التحريف والتلاعب، لكن أتباع تلك الديانات من اليهود والنصارى وغيرهم لم يقفوا من الإسلام موقفًا منصفًا بالاعتراف به كما اعترف هو بدينهم وكتبهم ورسلهم، وإنما اتخذوا منه موقفًا عدائيًا فلم يقبلوا الدعوة التي وجهها الله إليهم في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وبما أنَّ الإسلام دين يقوم على حقيقة وحدانية الله وعدم الغلو في الأنبياء أو القول على الله بغير الحق فقد خاطب الله أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾[١]، ولكن اليهود والنصارى لم يستجيبوا لهذا النداء الرباني الكريم، وإنما أصروا على الغلو ونسبة الولد إلى الله سبحانه ووصف النبي ﷺ بما لايليق به، ومحاربته ومعاداته وقد أخبرنا الله عزَّوجل بحقيقة موقفهم من هذا الدين بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٢] وبقوله عزَّوجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[٤] وسوف أتحدث بإيجاز عن بعض تلك الأديان في المباحث التالية:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٩.

المبحث الأول
اليهودية

وهي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم ـ عليه السلام ـ والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى ـ عليه السلام ـ مؤيدًا بالتوارة ليكون لهم نبيًا وهي منسوبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب وعممت على سبيل التغليب، وقد تربى موسى ـ عليه السلام ـ في قصر فرعون مصر بعد أن ألقته أمه في النهر داخل تابوت لخوفها عليه من فرعون الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، ولما شبَّ موسى قتل رجلاً قبطيًا ثم خرج من مصر إلى مدين وهناك عمل راعيًا لدى شيخ صالح قيل إنه شعيب ـ عليه السلام ـ الذي زوجه إحدى ابنتيه على أن يعمل لديه ثماني سنين، ولما قضى موسى الأجل وفي طريق عودته إلى مصر أوحى الله إليه بالرسالة وكلفه بالذهاب إلى فرعون لدعوته، ولكن فرعون رفض الدعوة وحاربها مما اضطر موسى ومن معه إلى الخروج فما كان من فرعون إلاَّ مطاردته للقضاء عليه ولكن الله نجَّى نبيه ومن معه وأغرق فرعون ومن معه كما أوضحت ذلك العديد من الآيات القرآنية في ذكر قصة موسى ـ عليه السلام ـ.

من أهم معتقداتهم :

١ـ أنَّ الذبيح من ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو إسحاق المولود من زوجته سارة بينما الصحيح أنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ .

٢ـ ليس في كتبهم ذكرعن البعث والجزاء والثواب والعقاب سوى

إشارات بسيطة لأنَّ تركيبة الفكر اليهودي لا تؤمن إلاَّ بالماديات.

٣ـ يرون أنَّ الثواب والعقاب إنما يكون في الدنيا فقط فالثواب هو النصر والتمكين والعقاب هو الهزيمة والذل والاستبعاد.

٤ـ يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأنَّ أرواحهم جزء من الله، وإذا ضرب أمي إسرائيليًّا فكأنما اعتدى على الله وأنَّ الفرق بين الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي وقد ذكر الله ذلك عنهم في القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

٥ـ يجوز لديهم غش غير اليهودي وسرقته وإقراضه بالربا الفاحش وشهادة الزور ضده وعدم البر بالقسم أمامه، ذلك لأنَّ غير اليهود في عقيدتهم كالكلاب أو الخنازير والبهائم بل يعدون فعل ذلك بغير اليهود قربة إلى الله.

٦ـ الديانة اليهودية خاصة باليهود فقط ولا يتيحون لغيرهم فرصة إعتناقها إلاَّ إذا كان من سلالة الشعب اليهودي.

٧ـ من رحم اليهودية المشوهة خرجت الصهيونية تلك الحركة السياسية العنصرية المدمرة التي هدفت إلى إقامة دولة لليهود في فلسطين وخططت لذلك منذ قرن من الزمان حتى أقامتها لتحكم العالم من خلالها، ومن خلال أفكارها التي صاغتها في بروتوكولات حكماء صهيون والتي تعتمد على تخويف الآمنين واستخدام العنف والإبادة معهم، وإغراقهم في الرذائل والسيطرة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

على العالم بأسره عن طريق المال والإعلام، والدعوة إلى الإلحاد والإباحية والفساد مع مخادعة الشعوب بالشعارات كالحرية والمساواة والإنسانية[١].

(١) انظر الموسوعة الميسرة للمذاهب المعاصرة: (٤٩٥) بتصرف.

المبحث الثاني
النصرانية

هي الرسالة التي أنزلت على عيسى ـ عليه السلام ـ مكملة لرسالة موسى ـ عليه السلام ـ ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم داعية إلى التوحيد والفضيلة غير أنها قوبلت بالمقاومة الشديدة حتى فقدت أصولها، وقد مرت بعدة مراحل، انتقلت خلالها من رسالة ربانية منزلة إلى ديانة محرفة ومبدلة، ويمكن تقسيم هذه المراحل كالتالي:

المرحلة الأولى:

لما اشتد انحراف بني إسرائيل عن شريعة موسى ـ عليه السلام ـ وطغيان التفكير المادي على عقولهم وفساد عقائدهم وأخلاقهم بعث الله إليهم عيسى بن مريم لدعوتهم إلى توحيدالله وإلى ملة إبراهيم حنيفًا وأيَّده الله بالمعجزات الخارقة للدلالة على نبوته فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، ويبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وأيَّده الله أيضًا بمائدة من السماء أنزلها عليه وعلى حوارييه لتكون لهم عيدًا لأولهم وآخرهم.

وقد قاوم اليهود دعوة عيسى وتآمروا على قتله مما اضطره إلى الاختفاء عن أعينهم غير أنَّ أحد أصحابه دلَّ الجند على مكانه فألقى الله عليه شبه عيسى وصورته فنفذ فيه حكم الصلب بدلاً من عيسى ـ عليه السلام ـ الذي رفعه الله إليه، على أنَّه سينزل قبل قيام الساعة

ليحكم بالإسلام ويقتل الخنزير ويكسر الصليب .

المرحلة الثانية :

وهي المسماة بالعصر الرسولي، والذي أعلن فيه بولس إيمانه بالمسيح بعد زعمه رؤيته عند عودته من دمشق وأنه عاتبه على اضطهاده لأتباعه وأمره بنشر تعاليمه بين الأمم وبالفعل قام بولس بالذهاب إلى روما وتأسيس كنائس نصرانية ونادى بعقيدة الصليب والفداء ونسخ أحكام التوراة وبذر بذور التثليث وقد استمرت المقاومة الشديد لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى.

المرحلة الثالثة :

مرحلة الإضطهاد والتي عانت فيها الديانة النصرانية أشد المعاناة من التثليث على أيدي اليهود الذين كانت لهم السيطرة الدينية ومن الرومان الذين كانت لهم السيطرة السياسية وقد اتخذ الاضطهاد أشكالاً عديدة من القتل والنشر بالمناشير والتمشيط ما بين اللحم والعظم والإحراق بالنار.

المرحلة الرابعة :

مرحلة الفهد الذهبي: وتبدأ من تربع الأمبراطور قسطنطين على عرش الأمبراطورية الرومانية عام: ٣١٢م والذي قام باستمالة قلوب النصارى بمنحهم الحرية في الدعوة والترخيص لديانتهم كما قام بتقريب النصارى وإسناد الوظائف الكبيرة إليهم وأظهر لهم التسامح وبنى لهم الكنائس واتخذ الصليب شعارًا لدولته فنشطت الدعوة ودخل الكثير من الوثنيين إلى النصرانية.

المرحلة الخامسة :

مرحلة الانفصال السياسي ونشأة البابوية: قبل وفاة قسطنطين قسم الإمبراطورية على أولاده الثلاثة، فأعطى الغرب لقسطنطين الثاني والشرق لقسطنطيوس والجزء الأوسط من شمال أفريقيا لقنسطانس، على إثر هذا التقسيم حصل الضعف في الأمبراطورية الغربية وتم الفصل بين سلطان الدولة والكنيسة، وعلى العكس في الأمبراطورية الشرقية فقد رسخ قسطنطين مبدأ القيصرية البابوية، ومن هنا زادت سلطات أسقف روما وتحول كرسيه إلى بابوية، لها السيادة العلياء، وظهر الصراع بين كنيسة روما بمالها من تراث ديني وبين كنيسة القسطنطينية عاصمة الدولة حتى تم الانفصال المذهبي للكنيسة تحت مسمى الكنيسة الشرقية الأرثوذسكية والكنيسة الكاثوليكية . .

ومن أبرز سمات هذه المرحلة ظهور الفساد ومحاربة العلم والعلماء وممارسة صور شتى من الطغيان على جميع وسائل الحياة، مما أدى إلى قيام العديد من الحركات الإصلاحية لكن هذه الحركات قوبلت بالرفض ومن هنا انشقت كنيسة ثالثة باسم كنيسة البروتستانت لتستقر النصرانية على ثلاث كنائس رئيسية لكل منها نحلة وعقيدة مستقلة وهي الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت.

أما أهم أصول ومعتقدات النصارى فهي:

١ـ القول بالتثليث الأب، والأم، وروح القدس، وهذا محض الكفر والضلال يقول عزّوجل: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ

مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[١].

٢- اعتقاد أنَّ المسيح ـ عليه السلام ـ قد مات مصلوبًا فداءً عن الخليقة لشدة حب الله للبشر وليخلص العالم من إثم خطيئة أبيهم آدم وخطاياهم وأنه دفن بعد صلبه وبعد ثلاثة أيام قام متغلبًا على الموت ليرتفع إلى السماء وقد كذبهم الله عزَّوجل وبين حقيقة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[٢].

٣- تقديسهم للصليب واعتباره شعارًا لهم وهذا من خفة عقولهم وسفاهة رأيهم إذكان الأولى أن يكرهوا الصليب لأنه أحد الأدوات التي صلب عليه إلٰههم كما يزعمون.

٤- يعتقدون أنَّ المسيح ـ عليه السلام ـ سيتولى محاسبة البشر يوم القيامة وأنَّ الله سيجلسه على يمينه في السماء، أما عباداتهم وشعائرهم فالصلاة عندهم عبارة عن ألفاظ ينويها الفرد ويكون الابتهال بها قلبيًا والصوم هو الامتناع عن الطعام الدسم، ومافيه شيء من الحيوان أو مشتقاته.

٥- الأسرار السبعة وهي التي تتم على يد الكاهن ويجب على كل نصراني ممارستها وإلاَّ أصبح ناقص الإيمان. وهذه الأسرار هي:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٧، ١٥٨.

أـ سر التعميد أي تعميد الأطفال عقب ولادتهم بغطسهم في الماء أو الرش عليهم باسم الأب والابن وروح القدس، لإعطاء الطفل شيئًا من الحرية ولمحو آثار الخطيئة عنه.

ب ـ سر التثبيت: حيث يقوم الكاهن بمسح أعضاء الفرد في ستة وثلاثين موضعًا من الأعضاء والمفاصل بدهن الميرون المقدس.

ج ـ سر العشاء الرباني ويكون بالخمر والخبز الجاف حيث يتحول الخمر إلى دم المسيح والخبز إلى عظامه، وعليه فإنَّ من يتناوله فإنما يمتزج في تعاليمه بذلك.

د ـ سر الاعتراف وهو الإفضاء إلى رجل الدين بجميع ما يقترفه المرء من آثام وذنوب ليحصل له الغفران والتطهير من الذنب وسقوط العقوبة.

هـ ـ سر الزواج ولا يكون إلاَّ بزوجة واحدة فقط وبحضور القسيس ولا يجوز الطلاق إلاَّ في حال الزنا.

وـ سر مسحة المرضى بزعم شفاء الأمراض الجسدية المتسببة عن العلل الروحية وهي الخطيئة.

زـ سر الكهنوت وهو السر الذي ينال به الإنسان بزعمهم النعمة التي تؤهله لأن يؤدي رسالة المسيح بين البشر، ولا يتم إلاَّ بوضع يد الأسقف على رأس الشخص ثم يتلى عليه الصلوات الخاصة برسم الكهنة[١].

---

(١) الموسوعة الميسرة للمذاهب المعاصرة: (٥٧٤) بتصرف.

المبحث الثالث
الهندوسية

وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر.

يقولون بتعدد الآلهة وأنَّ لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلٰهًا يعبد كالماء والهواء والأنهار والجبال.

وفي القرن التاسع قبل الميلاد جمع الهندوس الآلهه في إلٰه واحد سموه:

١ ـ براهما من حيث هو موجود

٢ـ فشنوا من حيث هو حافظ

٣ـ سيفا من حيث هو مهلك

فمن يعبد واحد من هؤلاء الآلهة الثلاثة فقد عبدهما جميعًا ويعتقدون أنَّ آلهتهم قد حلت في إنسان اسمه كرشنا والمجتمع الهندوسي مقسم إلى طبقات:

أـ البراهمة وهم الذين خلقهم الإلٰه براهما من فمه فمنهم المعلم والكاهن والقاضي والجميع يلجأون إليهم في حالات الزواج والوفاة.

ب ـ الكاشتر: وهم الذين خلقهم الإلٰه من ذراعيه ومهمتهم حمل السلاح للدفاع.

ج ـ الويش وهم الذين خلقهم الإلٰه من فخذه وهم الذين يزرعون

ويتاجرون ويجمعون المال.

د ـ الشودر وهم الذين خلقهم الإله من رجليه وعملهم مقصور على الخدمة والقيام بالمهن الحقيرة ويشكلون طبقة المنبوذين.

والهندوس يقدسون البقرة ولها تماثيل في معابدهم ومنازلهم ولها حق الانتقال إلى أي مكان ولا يجوز أن تمس بأي أذى وإذا ماتت البقرة فإنها تدفن وفق طقوس دينية.

والبراهمة هم صفوة الخلق ولهم قداسة الآلهة ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم الشودر ما يشاءون.

إذا استحق البرهمي القتل فإنه يحلق رأسه فقط.

المنبوذين عندهم أحط من البهائم وأذل من الكلاب إذا مد المنبوذ يده إلى البرهمي ليبطش به قطعت يده وإذا رفسه برجله قطعت رجله، وإذا تجرأ منبوذ بمجالسة برهمي فتكوى استه وينفي من البلاد.

من طقوسهم الدينية حرق الأجساد بعد الموت لأنَّ ذلك في زعمهم يسمح بأن تتجه الروح إلى أعلى، ولأنَّ الحرق يؤدي إلى تخليص الروح من غلاف الجسد تخليصًا تامًا.

إذا مات الرجل فلا يجوز لامرأته أن تتزوج بعده بل تعيش في شقاء دائم مما أدى إلى قيام النساء بحرق أنفسهن بعد وفاة أزواجهن لتفادي العذاب الذي ينتظرها بعده[1].

---

(١) الموسوعة الميسرة للمذاهب المعاصرة: (٧٣٤) بتصرف.

المبحث الرابع
البوذية

فلسفة وضعية انتحلت الصبغة الدينية لما فيها من دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير، وتعتبر منهجًا أخلاقيًا مبنيًا على نظريات فلسفية في إطار ديني، وقد طرأ عليها بعض التغيير بعد موت مؤسسها بوذا حيث تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني.

كان مؤسسها الملقب ببوذا أميرًا مترفًا في النعيم تزوج في التاسعة عشرة من عمره ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته وانصرف إلى الزهد والتقشف والتأمل في الكون ورياضة النفس حيث يرى أنَّ تخليص الإنسان من آلامه لا يكون إلاَّ بترك الشهوات

أما أبرز أفكارهم ومعتقداتهم فهي:

١ـ يعتقدون أنَّ بوذا ابن الله وأنه المخلص للبشرية من آلامها وأنَّ نجمًا في السماء قد ظهر للدلالة على ولادة بوذا، وأنه لما ولد فرحت جنود السماء ورددت الملائكة أناشيد المحبة.

٢ـ يعتقد البوذيون أنَّ هيئة بوذا قد تغيرت في آخر أيام حياته وقد نزل نور عظيم أحاط برأسه وأضاء من جسده فقال الذين رأوه ما هذا إلاَّ إله عظيم.

٣ـ يؤمنون برجعة بوذا ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها.

٤ـ يصلي البوذيون لبوذا ويعتقدون أنه سيدخلهم الجنة.

٥ـ يهتم البوذيون بالجانب الأخلاقي ويدعون إلى التسامح والمحبة

والتعامل بالحسنى والتصدق على الفقراء وترك الترف وحمل النفس على التقشف والتحذير من الزواج والمال.

٦ـ يجب على البوذي التقيد بثمانية أمور حتى يستطيع أن ينتصر على نفسه ويسيطر على شهواته وهي:

أـ الاتجاه الصحيح المستقيم الخالي من سلطان الشهوات

ب ـ التفكير الصحيح المستقيم الذي لا يتأثر بالأهواء

ج ـ الإشراق الصحيح المستقيم أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها.

د ـ الاعتقاد المستقيم الذي يصحبه ارتياح واطمئنان إلى ما يقوم به

هـ ـ مطابقة اللسان لما في القلب.

وـ مطابقة السلوك للسان والقلب

زـ الحياة الصحيحة التي قوامها هجر اللذات

ح ـ الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحق وترك اللذات والشهوات.

من أبرز وصايا بوذا لا تقضي على حياة حي، لاتسرق، ولا تغضب، لاتكذب، لا تتناول مسكرًا، لا تزن، لاتأكل طعامًا نضج في غير أوانه، لا ترقص، لا تحضر مرقصًا، ولا حفل غناء، لاتتخذ طيبًا، لا تقتن فراشا وثيرًا، لاتأخذ ذهبًا ولا فضّة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وأشكره على جميل أفضاله ونعمه السابغات، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله الذي بعثه الله بالدلائل الواضحات والبراهين البينات، حتى أضاء الكون بنور رسالته، وأبان الحق وأقام عليه الحجج والآيات، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

وأشكره على ما امتنَّ به عليَّ من جمع مادة هذا الكتاب، وتقرير مسائله، واستيفاء قضاياه المتعلقة بالعقيدة، حسب الطاقة والإمكان، وقد حرصت فيه على الالتزام بالمنهج الذي رسمته عند العزم على تأليف هذا الكتاب، والذي أوضحته في المقدمة.

وإنني لأرجو أن أكون وقفت في إصابة الحق وإيضاحه بدليله من كتاب الله عز وجل، ومن سنة رسوله ﷺ، ومن كلام الأئمة الأعلام.

ومع هذا فإنني لا أدعي الكمال والعصمة، فما أنا إلاَّ بشر يقع منه ما يقع من البشر من القصور والنقص والخطأ والنسيان، وحسبي أني بذلت جهدي، واستنفدت طاقتي، فإن أحسنت وأصبت فمن الله وحده، وهو صاحب الفضل والمنة، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله منه.

وأملي ممن يطلع على كتابي ألاَّ يبخل عليَّ بنصيحة خالصة، أو دعوة صالحة، وأسأل الله عز وجل أنْ يغفر لي خطئي وأن يعفو عن زللي، وأن ينفعني بما كتبت يوم فقري وحاجتي وصلى الله على نبينا محمد وآل وصحبه وسلم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة